كلمة العدد

الوثيقة
خطوة على الطريق

بقلم سعادة الشيخ عبد الله بن خالد آل خليفة

عندما صدرت "الوثيقة" منذ قرابة الربع قرن كان لها هدف واضح ومحدد هو أن تكون أساساً متيناً لكتابة تاريخ البحرين، فقد لوحظ أن معظم الذين كتبوا عن تاريخ المنطقة سواء من المستشرقين أو السياسيين أو الرحالة أو المبعوثين أو البحارة قد وقعوا في أخطاء جسيمة كان سببها عدم الوعي الكامل بظروف البيئة الخليجية أو عاداتها وتقاليدها والظروف التي تحكم العلاقات بين الأفراد والجماعات المنتشرة على الساحة العريضة . ونحن لا نلوم من كتبوا عن ذلك فلهم عذرهم كما أن ذلك لا يمنع من أنهم قدموا إسهامات كثيرة ساعدت في معرفة الكثير من الغوامض خاصة فيما يتعلق بالجغرافيا والطبوغرافيا وبعض الرحلات التي وصفوا خلالها وصف شاهد عيان لكثير من الظواهر وإن كان تفسيرها يختلف عما يمكن أن تُفَسَّر به .

لكل ذلك ظهرت الحاجة ومنذ وقت طويل لتصحيح الكثير من هذه المقولات خاصة وأن بعض الكتب الأجنبية بأغلاطها كانت هي العمدة والمرجع شبه الوحيد للباحثين سواء من أبناء المنطقة أو من الخارج . مثال ذلك كتاب لوريمر وغيره .

ونحن هنا لا –وأكرر ذلك– لا ننتقص مما بذله لوريمر وغيره من جهد بل العكس فقد قدموا الكثير وبذلوا جهد الطاقة ولكنه اختلاف البيئة والنشأة والظروف واللسان والعادات ووعورة الطريق . ولكن الذي أود التأكيد عليه أن الحاجة أصبحت ملحة لإعادة كتابة تاريخ المنطقة بأيدي أبنائها، وتصحيح الكثير مما وقع فيه الآخرون . وجاءت الحاجة لـ "الوثيقة" كما قلت في بداية هذه السطور وكانت لها عدة أهداف محددة ومرسومة لتحقيق الهدف المنشود :

أولاً : الاستفادة من العدد الكبير من الوثائق التي قام مركز الوثائق التاريخية بديوان سمو ولي العهد منذ عام ١٩٧٨م بجمعها وحشدها من أكثر من مكان . وبذل في ذلك جهداً كبيراً حتى أمكن جمع آلاف الوثائق التي كانت معرضة للضياع سواء في الأرشيفات الهولندية أو الهندية أو التركية أو الروسية أو المصرية . هذه الوثائق أصبحت تمثل مدداً كبيراً ومادة خاماً للباحثين في تاريخ المنطقة والساعين وراء الحقيقة التاريخية من مصادرها التي لا تقبل الشك .

ثانياً : تبويب هذه الوثائق حسب الفترات الزمنية أو العصور التي تتابعت على البحرين والمنطقة، حتى يكون تناولها سهلاً بالنسبة للباحثين وحتى يمكن تنقيتها هي نفسها مما داخلها أو دخلها من زيف عن قصد أو سوء نية أو سوء تقدير .

ثالثاً : تبادل هذه الوثائق مع المراكز الشقيقة في المنطقة حتى تساهم بما لديها من جهد في دعم ما جمع من وثائق أو في الإضافة إليه أو في تصحيحه ليمكن بذلك حشد أكبر جهد ممكن .

رابعاً : إعداد أبحاث من كل عصر من العصور التي مرت بالبحرين وبالمنطقة والإكثار من هذه الأبحاث بقدر المستطاع مع إعطاء كل الاعتبار والاحترام للرأي والرأي الآخر إيماناً بأن الخلاف حول نقطة ما هو أحسن السبل للوصول إلى الحقيقة .

وقد استطاعت "الوثيقة" طوال قرابة ربع القرن الماضي نشر مئات الأبحاث حول الفترات التاريخية التي مرت بالبحرين والمنطقة بأقلام باحثين بحرينيين وعرب وأجانب كان لها فضل كبير في إلقاء الضوء على كثير من المراحل وفي وضع كثير من النقاط على كثير من الحروف وفي تعريف الأجيال الجديدة بتفاصيل تاريخ ماجد شهدته هذه الأرض وتاريخ رجال قدموا الكثير لأرضهم وبلدهم وعروبتهم . كما صححت الكثير من المفاهيم التي تضمنتها الكثير من الكتب الأجنبية التي كتبت عن المنطقة وأصبحت طوال هذه السنوات ومازالت مرجعاً هاماً للدارسين والباحثين في تاريخ المنطقة من البحرين ومن خارجها بل وأصبح مركز الوثائق التاريخية التابع لديوان سمو ولي العهد والذي تصدر عنه "الوثيقة" قبلة المئات من طلاب الدراسات العليا الذين كانوا من قبل يشدون الرحال إلى أوروبا وغيرها بحثاً عن تاريخ بلادهم متحملين في ذلك عناء الغربة وتكاليفها الباهظة .

كل ذلك تم بعون الله وفضله وكرمه وشكل جزءاً رئيسياً من الهدف الرئيسي الذي صدرت من أجله هذه المجلة . ولكن الهدف الأكبر كان هو كتابة تاريخ البحرين أو حصر تاريخ البحرين في موسوعة واحدة مثلما يحدث في الدول الأخرى حتى يكون سجلاً محققاً بين أيدي الأجيال القادمة . . هذا الهدف بدأ العمل له بفضل الله ويجري حالياً الإعداد لإصدار ثلاثة أجزاء رئيسية من هذه الموسوعة من إعداد كاتب هذه السطور والدكتور علي أباحسين مدير مركز الوثائق التاريخية وسوف يتناول القسم الأول تاريخ البحرين منذ دخول الإسلام وحتى العصر

الحديث الذي تحولت فيه البحرين إلى مملكة مزدهرة ناهضة فتية تأخذ بأحدث معطيات العصر وتندفع بقوة الشباب وعزمه وعزيمته لتحقق لأبنائها الرفاه والأمان والاستقرار الذي تنشده كل الدول وينشده كل المواطنين .

أما الجزء الثاني فيتناول تاريخ آل خليفة في البحرين .

وخصص الجزء الثالث (ملك ومسيرة) يعرض لمسيرة صاحب الجلالة الشيخ حمد بن عيسى آل خليفة ملك البحرين . وقد حاولنا جهدنا أن نستفيد من المعطيات الكثيرة التي قدمتها "الوثيقة" عبر ربع قرن ومما هو متوافر الآن في مركز الوثائق التاريخية حتى يأتي هذا العمل جديراً بالبحرين شعباً وتاريخاً وواقعاً ومستقبلاً .

إن الوثيقة وهي تشرف الآن على إكمال ربع قرن على صدورها وهو رقم قياسي بالنسبة للصحافة المتخصصة في عالمنا العربي لتدرك تماماً مدى الدعم العظيم الذي لقيته من صاحب الجلالة الملك حمد بن عيسى آل خليفة ملك البحرين الذي أصدر توجيهاته بإصدارها منذ كان ولياً للعهد والذي تابع عن قرب تقدمها ووالاها بتوجيهاته السديدة وإرشاداته الهامة التي أضاءت الكثير من الدروب أمام العاملين بها والعاملين لها . ولا ننسى الدور البارز الذي ساهم به عدد كبير من كبار المؤرخين العرب والأجانب الذين أثروا ما نشرته من أبحاث وزودوها بالكثير من الأفكار التي شرحت الكثير من غوامض الأحداث في هذه المنطقة . إنها خطوة على الطريق نرجو أن تكون قد أصابت ونرجو أن تتبعها خطوات أخرى نحو الأمل المنشود لنا جميعاً .

والله ولي التوفيق

عبد الله بن خالد آل خليفة

العمارة القديمة

في دولة الإمارات العربية المتحدة

بقلم : الدكتور جواد مطر الحمد

إن دراسة المخلفات الأثرية التي يزيحها معول المنقب تكشف عن بعض جوانب التراث الحضاري وأثر الإنسان فيه . ونظراً لحداثة التنقيبات الأثرية في دولة الإمارات العربية المتحدة، وعدم نشر نتائج بعض البعثات الأثرية التي زارت المنطقة، وقلة المصادر والمراجع، حددت الباحث في حسم الكثير من المسائل العالقة، لكن ذلك لا يمنع من محاولة وضع توطئة قدم لمثل تلك الدراسات .

وفي دراستنا للعمارة نهدف إلى تأكيد أثر العرب في الأحداث.



التاريخية القديمة في منطقة الخليج العربي، وقد أخذنا بنظر الاعتبار في عرض المادة التسلسل الزمني قدر الإمكان، وحسب تقديرات العلماء للمواقع الأثرية، وركزنا على دراسة ما استظهر من وحدات بنائية (قبور ومنازل ومعابد) في المواقع الأثرية .

وفي الختام، إن هذه الدراسة هي خطوة من الخطوات أرجو أن تتبعها خطوات أخرى .

١ – القبور :

من أروع فنون العمارة في الخليج العربي، المدافن الدائرية الشكل التي شيد سورها الخارجي من الحجر المهذب المصقول الوجه المتقن البناء، والتي تضم بداخلها تقسيمات بنائية خصصت لحوداً للدفن، وقد عثر عليها في مواقع أثرية متعددة من دولة الإمارات العربية المتحدة، ومنها مواقع (جبل حفيت)[١]، الذي يرجعه العلماء إلى عصر جمدة نصر في العراق القديم في حدود نهاية الألف الرابع قبل الميلاد (٣٢٠٠ – ٣٠٠٠ ق.م)[٢]، وعدد قبوره يزيد على أكثر من مائتي قبر على سبيل التقدير، وقد قامت أكثر من بعثة تنقيبية بأعمال التنقيب في هذا الموقع، ومنها البعثة الدنماركية لمدة موسمين كشفت خلالهما عن عشرين قبراً، واختارت في البدء ما يزيد على تسعة وعشرين قبراً معظمها تعرض للسرقة في حقب زمنية متفرقة .

وقد أثبتت الحفريات أن جميع القبور متشابهة إلى حد بعيد، استعمل في بنائها الحجارة المحلية غير المهذبة، وقد رتبت بشكل صفوف الواحدة فوق الأخرى حول فراغ دائري أو بيضاوي الشكل، يعد بمثابة حجرة الدفن، وتم البناء على سطح الأرض مباشرة دون الحفر فيه، وروعي أن يجعل بكل مدفن فتحة من جهة الجنوب بشكل ممر ضيق، يتراوح قطر كل قبر قبل التنقيب بين (٧ – ١١) متراً ، وأقصى قطر لغرفة الدفن من الداخل هو (٢م)، وأكبر القبور يبلغ قطر حجرة الدفن فيه (٢,٨٥م) وارتفاعها (٢,٦م) وأصغرها قطر حجرته (١,٣٥م) وارتفاعها ١,٢٥م)، أما معدل عرض المدخل المؤدي إلى غرفة الدفن فهو (٥٠ سم) وغالبا ما يسقف مثل هذه القبور أو الممرات بصورة كلية أو جزئية بحجارة مسطحة كبيرة، وقد وجد داخل هذه القبور بعض السهام والخناجر والسيوف والأواني البرونزية وكمية من الأواني الفخارية المخروطية الشكل والخرز مصنوعة من المواد المختلفة .

أما بالنسبة لطريقة الدفن فتشير العظام البشرية إلى أن جسد الميت كان يسجى على جانبه والرأس متجهاً إلى الشرق، ومن الجدير بالذكر أن غرف الدفن كانت تتسع لأكثر من جثة واحدة، إذ عثر في أحد القبور على بقايا لأربع جماجم بشرية[٣] .

وفي الموسم الثاني (١٩٧١م) نقبت البعثة في ستة قبور على الجانب الشرقي من جبل حفيت على مسافة حوالي (٤ – ٥ كلم) شمال (مزيد)، أسفرت عن نتائج هامة، فالقبر الذي أعطاه المنقبون الرقم (١٣١٧) (**شكل رقم ١**) كان ارتفاعه أكثر من مترين بقليل وقطر التل الدائري سبعة أمتار وسمك الجدار أكثر من مترين، وفي القبر غرفة داخلية وأخرى خارجية تحيطان بغرفة صغيرة قطرها متران، فالجدران مشيدة من صخور غير منتظمة وهي عبارة عن قطع كبيرة من الحجر والمدخل في الجانب الجنوبي، ووجد في هذا القبر هيكل عظمي واحد موضوع على جانبه الأيسر وأرجله مسحوبة باتجاه الغرب، وهناك رأس منفصل موضوع في الشمال، يعود إلى هذه الجثة، أو قطع ودفن بصورة منفصلة، وهذا يدل على عادة مارسها السكان ونجد مثيلها في أماكن أخرى في المواقع الأثرية في أريحا (فلسطين) إذ عثر على بعض المسامير البرونزية وخرز صغيرة أسطوانية خضراء، مما يدل على أن الميت كان مكفناً أثناء دفنه أو موضوعاً في حصير، ووجد في القبر بعض الخرز والكسرات الفخارية .

ثم القبر المرقم (١٣١٨) ويقع في وادٍ يبعد (٥٠ متراً) عن القبر السابق، والجدار الذي يرتفع ثلاثة أمتار موجود في الجهة الشمالية، ويظهر أن القبر غير منتظم، أما القبر الذي رقمه الآثاريون (١٣١٩) فكان مربع الشكل ذا جدار خارجي دائري يحيط بالقبر . ويتألف الجدار السميك من جدارين والمدخل في الجانب الجنوبي مع ممر ارتفاعه (١,٣٠ متر) وعرضه (٦٠ سم) قطر الحجرة متران، أما القبر المرقم (١٣٢٠) فيشبه في بنائه القبر السابق، وقطع حجر الأساس فيه كبيرة والجدار الخارجي عمودي، ويميل الجدار الداخلي إلى الانحناء عند الأرضية، والقبر المرقم (١٣٢١) الذي يقع حوالي (٥ – ٦ أمتار) فوق السهل المستوي قرب قدم الجبل، فلم يبق أثر للجدار الخارجي وبقي الممر على الجانب الجنوبي، أما القبر المرقم (١٣٢٢) فيقع على الجانب الشرقي من الجبل، ولم يعثروا فيه على شيء، بينما عثر في القبر المرقم (١٣١٩) على دبوس نحاسي وشظايا دبوس آخر ومسمار تثبيت من النحاس[٤] .

وفي سنة (١٩٧٢م) قامت بعثة عراقية بالتنقيب في سبعة عشر قبراً من قبور (جبل حفيت)، وبين سنة(٧٣ — ١٩٧٤م) قامت دائرة الآثار والسياحة في (أبوظبي)، باستئناف التنقيب، وتمكنت من كشف عشرة قبور أخرى، وكان أحد القبور مستطيل الشكل طوله (٣,٧٠م) وعرضه (٣,٢٠م)، وآخر بيضاوي مقسم من الداخل إلى ثلاثة أقسام، أما بقية القبور فجميعها بأشكال دائرية غير منتظمة، تتجه أغلب مداخلها نحو الجنوب(٥) .

وقامت البعثة الفرنسية بين سنة(٧٦ — ١٩٧٧م) بالتنقيب في ستة قبور، شيدت بجدارين دائريي الشكل يتحدان في مركز وسقف ذي بروز وتواجه القبور الجنوبية عضادات مستقيمة أو مائلة قليلة والممرات تغطى بكتل كبيرة من الحجر، وارتفاع القبر الأول (١,٥٠م) وقطره من الخارج ((٦,٢٠م) وقطر الغرفة الجنائزية متران وارتفاع الجدار الخارجي الحالي لا يزيد عن (٦٠ سم) وهو عبارة عن كتل حجرية موضوعة في صفوف غير منتظمة، وارتفاع الباب (١,٢٠م) وعرضه (٦٠ سم)، وقد رصفت الغرفة الجنائزية بأحجار صغيرة مستوية وضعت على الأرض، أما القبر الثاني فغرفته الجنائزية (٢,٥ م) وسمك القبر الداخلي بين (٨٠ — ١٢٠ سم) ولم توضع الكتل الحجرية بصورة منتظمة حتى ارتفاع متر واحد ثم صف من أحجار كبيرة وضعت على رؤوسها، قد تكون قاعدة للسقف ذي البروز وتستقر عليه عتبة الباب العليا، ويفتح باب القبر نحو الجنوب وارتفاعه (١,١٠م — ٥٥ سم) والغرفة الجنائزية دائرية الشكل تقريباً، والقبر الثالث دائري الشكل قطره (٥,٣٠م) والحجرة مستطيلة الشكل تقريباً، وسمك الجدار الثاني للقبر متر واحد وهو مشيد من كتل حجرية وضعت في صفوف وينحني قليلاً إلى الداخل، ووضعت الأحجار في الجدار الخارجي بصورة متناوبة طولاً ورأساً، أما الممر فطوله متران وعرضه (٦٠ سم)وارتفاعه عند عتبة الباب (١,١٠م) وأبعاد الغرفة الجنائزية (٢,١٠× ١,٦٠م) بأرضية من الصخر الطبيعي، وفي هذا القبر عثر على هيكل بشري واحد، وضع بصورة جانبية وأرجله مسحوبة نحو بطنه، أما القبر الخامس فارتفاعه (١,٥٠م) .

وكما رأينا في هذه الأمثلة، فإن قبور جبل حفيت تتألف من مدخل مع ممر يؤدي إلى الغرفة، مما يدل على أن القبر قد أريد به دفن أكثر من شخص واحد، ويؤكد هذا الاستنتاج كثرة الأثاث الجنائزي الذي وجد في هذه القبور والتي لابد وأنها دفنت مع

أكثر من ميت واحد، فبعض المدافن تحتوي (٣ – ٤) قبور وأحياناً على (٤ – ٥) في غرفة واحدة، وهذا يدل على الدفن المتكرر أو أنها مدافن عائلية، وكان الميت يدفن على جانبه ويداه أمام وجهه ورجلاه مثنيتان ورأسه نحو الشرق (مشرق الشمس)، وهذا لا يماثل قبور البحرين التي على شكل خلية النحل محاطة بركام من الصخور، بل إن قبور جبل حفيت تشابه كثيراً مقابر (عبري) في عمان، ولكنها أكبر حجماً، وهي تكاد تطابق قبور جمدة نصر في وسط العراق[٦] .

أما الدفن في الجانب الشرقي فقط من جبل حفيت، فلابد أنه ينم عن معتقد ديني كان سائداً لدى سكان المنطقة لا نعرف عنه – الآن – شيئاً، وربما فضلوا الدفن في القسم الشرقي لقربه من مواقع سكناهم[٧] .

وفي جزيرة أم النار[٨]، عثر على ما يقرب من خمسين قبراً، تعود إلى الألف الثالث قبل الميلاد، تقع على التل الشمالي الشرقي للجزيرة، وقد قامت البعثة الدنماركية بأعمال التنقيب في تسعة قبور بين سنة (١٩٥٩ – ١٩٦٢م) ومن مميزات هذه القبور تزايد الحجم والارتفاع النسبي مما يدل على أهمية الشخص المدفون ومقامه الاجتماعي، ولهذا نلاحظ كثرة المقابر الصغيرة وقلة المقابر الكبيرة، وكانت أحجار هذه القبور منقورة ومقطوعة ومصفوفة على بعضها البعض بتنظيم هندسي يتناسب مع الشكل الدائري للقبر وبإتقان تام دون استعمال أي مادة ربط، ويتكون القسم الداخلي لكل من هذه القبور من عدد من اللحود يفصل بعضها عن بعض جدران أحجارها خشنة غير منقورة ويتراوح قطر هذه القبور الدائرية ما بين ثلاثة أمتار واثني عشر متراً كحد أقصى ولا يزيد ارتفاعها في الغالب على مترين، وتمتاز الجدران الخارجية بالازدواجية والاختلاف في الصقل الخارجي للأحجار حسب حجمها وأهميتها، ففي القبور الكبيرة نجد أن الجدران الخارجية مبنية من أحجار كبيرة مصقولة صقلاً جيداً ذات تشكيل وتثبيت دقيقين رصت فوق بعضها البعض دونما حاجة إلى استعمال مادة للربط، في حين نجد هبوط مستوى أعمال النحت والتشكيل والصقل في القبور الصغيرة، ويلاحظ أن الحجارة المنحوتة المصقولة تكون أكبر في أدوار البناء السفلية وتصغر في الحجم كلما ارتفع البناء، والغرض من ذلك هو المحافظة على الجدران من السقوط، أما الجدار الدائري الخارجي فيستند على قاعدة من قوالب حجرية كبيرة ارتفاعها (٢٠ سم) تقريباً، أما ارتفاع

الجدران الدائرية فيبلغ (٧٠ – ١٤٠ سم) تقريباً فوق القاعدة، ويبلغ عدد الأعضاد في أقصى الحالات عشرة أعضاد حيث تميل هذه إلى الداخل، أما الجدار الدائري الداخلي فيتصف بالخشونة، ويوجد في الجدار الدائري لكل قبر فتحة كبيرة نسبياً تؤدي إلى نهاية الممر الأوسط الذي يفصل حجرات الدفن، وقد تنحت هذه الفتحات للمداخل نحتاً خاصاً ودقيقاً، وقد وجدت بعض أحجار هذه المداخل في وضع سليم وكان بعضها ذا فتحة كبيرة إلى درجة تكفي لدخول شخص، وبعض القوالب الحجرية التي استعملت في البناء، كانت مزخرفة بصور حيوانات مثل : الثيران والغزلان والماعز والجمال والثعابين وصور الآلهة، أما داخل القبر فقد قسم إلى قسمين متساويين يفصلهما ممر .

ويعاد تقسيم كل منهما إلى قسمين آخرين متساويين بجدار يمتد من الجدار الدائري إلى جدار الممر الأوسط في زاوية مستقيمة ثم يعاد تقسيم الأقسام الأربعة إلى قسمين لكل منهما جدران منحنية بطريقة هندسية بحيث تكون لحوداً منفصلة للدفن واطئة تشبه الصناديق .

أما سقوف هذه القبور فتتكون من مصاطب كبيرة تستند على أحجار بارزة يتراوح ارتفاعها ما بين (٧٠ – ٩٠سم) وقد عثر على إحدى هذه المصاطب السقفية، وهي لا تزال في موضعها الأصلي، وكانت مصاطب التسقيف توصل بأقرب نقطة ممكنة لها، إذ كلما ازدادت مساحة التسقيف ازدادت الجدران التي تستند عليها السقوف .

وقد عثر داخل اللحود على هياكل بشرية ولم يكن هناك نظام معين للدفن، بل كان كل شيء مكوماً على بعضه البعض بدون تنظيم ظاهري على الأقل، كما لم يكن هناك اتجاه خاص في وضع الجثة، ففي أحد القبور مثلاً وجدت هياكل عظمية واحد منها بشكل القرفصاء، والآخر ممتد كما أن الجثة لا توضع في مكان معين في اللحد، إذ قد تتوسطه أو تلاصق الجدران وقد تستند على قاعدة جدار القبر .

ويبدو أن الميت كان يدفن بملابسه أو بملابس خاصة للدفن مطرزة بالخرز، والدليل على ذلك هو العثور على كميات كبيرة من الخرز المختلفة الأشكال والأحجام بعضها منضد في صفوف مع قطع من القماش، ويتميز هذا الخرز بكونه صغير الحجم أجوف وأسطواني الشكل من الحجر الرمادي .

وتلك القبور تشبه إلى حد كبير القبور المكتشفة في موقع (أم الماء) في قطر وتلال الدفن في أقصى الجنوب الشرقي من البحرين وهذه الأماكن تعـــود إلى العصـــر البرونزي (٣٠٠٠ ق.م) ويرجع ذلك للقرب الجغرافي والاجتماعي مما يدل على الوحدة الحضارية للمنطقة[٩] .

ومن نماذج قبور جزيرة (أم النار)[١٠]، القبر الذي يطلق عليه قبر (أم النار الكبير) وهو دائري الشكل مقسم من الداخل إلى قسمين رئيسيين شمالي وجنوبي قسم كل منهما إلى أربعة أقسام بواسطة تقاطع الجدران، فالأقسام الأربعة الشمالية يصل بينها ممر محيطي يقع المدخل الشمالي في منتصفه، أما الأقسام الأربعة الجنوبية فهي مشابهة تماماً للأقسام الشمالية إذ يقع المدخل الجنوبي في منتصفها، ويعد هذا القبر من أكبر القبور قطراً وأعلاها ارتفاعاً إذ يبلغ قطر دائرته (١١,٢٠م) وقد بني هذا القبر على قاعدة من الحجر صُفَّ فوقها العضد الأول من الجدار المتكون من صفين من الحجر، أما الصف الخارجي فيتكون من قطع كبيرة منتظمة الشكل أغلبها مستطيلة ومنها مربعة تقف على أحد أضلاعها، صُفَّت فوقها وبجانبها القطع الأخرى بطريقة الحل والشد وأغلب حواشيها قائمة ومهذبـــة ذات وجـــه خارجي مصقول يتراوح ارتفـــاع الصف الأول بين (٥٠ — ٦٠ سم) وطول الحجرة الواحدة يتراوح بين (٣٠ — ٩٠ سم) وقد قوست كل قطعة بالاتجاهين الأفقي والعمودي، الأفقي لأن المخطط العام دائري، والعمودي لسبب معماري غرضه أولاً الجمال، وثانياً لجعل مركز الجدار يميل إلى الداخل لزيادة التماسك بين القطع وعدم ميل الجدار إلى الخارج بتأثير العوامل الطبيعية، وربما هناك سبب ديني ثالث مرده أن النقوش في الجدار لا تتيح للناظر إليه رؤية نهايته مما يوحي بأن الجدار لا ينتهي وهذا يدل على عدم انتهاء الحياة، كما في اتحاد جدران الزقورات السومرية، ثم العضد الثاني فوق العضد الأول بنفس الطريقة، إلا أن الثاني أقل قطراً، وذلك لميل الجدار إلى الداخل من جميع الجهات، وكذلك أقل ارتفاعاً من العضد الأول إذ يتراوح ارتفاع الحجر فيه بين (٤٠ — ٥٠ سم) وطول القطعة بين (٣٠ — ٧٠ سم) والعضد الثالث أقل قطراً وارتفاعاً وحجماً للقطعة الواحدة وهكذا على شكل متوالية هندسية غرضها الجمال والبساطة وسهولة العمل[١١] . ويعتقد أن هذا القبر هو مدفن جماعي، كما أنه أثر في قبور (بات) في عمان (شكل رقم ٢) .

وإلى نفس الحقبة (الألف الثالث قبل الميلاد) ترجع أغلب قبور (المنيمة) في إمارة عجمان التي هي عبارة عن ركم دائرية الشكل من الحجارة غير المهذبة قطرها يتراوح بين (٢ – ٢,٥ م) وارتفاعها عن سطح الأرض الصخرية حوالي (٥٠ سم)[١٢] .

وفي موقع (هيلي)[١٣] (٢٧٠٠ – ٢٥٠٠ق.م) عثر على أكثر من قبر، ومن خلال التنقيبات التي جرت في سنة (٧٢ – ١٩٧٣م) في القبر (A) الواقع في القسم الشرقي من قرية هيلي، كشف عن جدار شبه مستدير قطره (٧,١٠ سم) ذي خمسة أعضاد بارتفاع متر واحد، كما عثر في الداخل على جدارين متوازيين من الشمال إلى جنوب الأول بطول (٥م) يقسم القبر إلى قسمين غير متساويين وعلى بعد (١,٧٥م) من هذا الجدار يمتد الجدار الثاني وهو بطول (٥,٥٠م) ونتيجة لذلك تتشكل غرفة دفن مستطيلة قسمت إلى قسمين متساويين بواسطة جدار غير سميك من الشرق إلى الغرب، حيث يبلغ معدل قياس الأحجار المستعملة في بنائه (١٨×٢٥×٢٠سم) واستعمل الطين الممزوج بأية مادة أخرى للربط وهي بسمك (٢سم)، ويبلغ سمك الجدران الداخلية (٥٠ – ٦٠سم) وبارتفاع متر واحد ولقد أقيمت الجدران على أسس من الأحجار الصغيرة ولاسيما الجدران الداخلية والجدار المستدير الداخلي، وقد عثر داخل القبر على عدد من الأحجار المسطحة وهي دليل واضح على استعمالها في التسقيف ولا نعلم فيما إذا كان القبر مسقوفاً بأكمله أو أن أجزاء منه قد تركت مكشوفة .

وهناك احتمال أن هذا القبر كان قد خُط على الأرض قبل بنائه ثم حفرت الأرض إلى العمق المطلوب فأصبح بشكل حفرة دائرية، حيث أقيم من الداخل جدار دائري بني من الأحجار غير المنحوتة، أقيمت باتجاه داخلي لخلق شكل جميل، وبعد ذلك قسم القبر داخلياً بإقامة جدارين متوازيين من الشمال إلى الجنوب وفي الأقسام العليا من القبر وضعت الأحجار المنحوتة ذات القياس (٦٠–٧٠سم) للدلالة على القبر، وبعد الانتهاء من عملية الدفن كان القبر يغطى بالتراب المتخلف من الحفر وتبقى الأحجار العليا ظاهرة للعيان لغرض تمييزه، وتجدر الإشارة إلى أن هذا النوع من القبور معروف في عصور ما قبل التاريخ في (تمركرا) في غرب الباكستان وغم اختلاف الشكل والحجم فإن طريقة البناء واحدة، واستناداً لذلك يمكن أن تعود قبور (هيلي) إلى منتصف الألف الثالث قبل الميلاد[١٤] .

أما القبر (B) في هيلي والذي يقع على بعد (١٨٠م) شرق القبر (A) فقد بدأت عمليات التنقيب فيه عام (١٩٧٢م) واستمرت لمدة خمسة أشهر، والقبر دائري الشكل قطره (١٠م)، وجداره الخارجي مبني من أحجار منحوتة حيث سويت وجوهها الخارجية وصقلت جيداً، ، ويبلغ قياس الغرفة الواحدة (٦٠×٨٠سم) و (٦٠×١٠٠سم)، والقبر مشابه للقبر (A) وطريقة بنائه تمت بواسطة تخطيط دائرة منتظمة في المكان المراد تشييده ومن ثم يبدأ بوضع حجارة في أول الصف من الأسفل، ومن ثم يقسم القبر داخلياً حسب المطلوب بواسطة عمل جدران متقاطعة، وغالباً ما تستعمل الأحجار الكبيرة غير المصقولة في بناء الأسس، أما غرف الدفن فقد شيدت عن طريق تقاطع الجدران المبنية من الأحجار الخشنة وهي أكثر وضوحاً من التقسيم ذاته في القبر (A) فالقبر (B) قسم إلى أربعة أقسام رئيسية وكل قسم منها قسم إلى قسمين آخرين بواسطة جدران متجهة من الشمال إلى الجنوب عدا جدار واحد متجه من الشرق إلى الغرب، وليس لدينا تصور واضح عن طريقة الدفن في هذا القبر بسبب تكرار الدفن فيه أكثر من مرة، مما يؤدي إلى تنظيف (كنس) مكان الدفن أكثر من مرة، واعتقد بعض المنقبين أنه ربما يوضع الميت في العراء قبل دفنه ثم ينقل إلى القبر فيما بعد .

أما القبر (C) ويقع إلى الغرب من القبر (B) على بعد (١٧,٥م) وهو دائري الشكل قطره (٨,٧٠م) فلم يبق من جداره الدائري البالغ سمكه (٨٠ – ٨٥سم) سوى صفين من الأحجار المنحوتة، ترتكز على قاعدة حجرية تبرز مقدار (١٨سم)، أما قياسات الأحجار المنحوتة المستعملة في تركيب الجدار الدائري فتبلغ (٤٤×١٩سم) و (٢٢×١٧سم) قسم هذا القبر بواسطة جدار قاطع سمكه (٧٠سم) من الشرق إلى الغرب، إلى قسمين رئيسيين من الشمال إلى الجنوب ويقطع هذا الجدار من جهتين متقابلتين جداران متوازيان من الجنوب إلى الشمال، وبذلك يقسم كل نصف ثلاثة أقسام أما الجداران المتوازيان فلا يتصلان بالجدار المدور من الداخل ليكون هناك ممر محيطي يصل بين هذه الأقسام التي استعملت لدفن الموتى حيث وجدت عظامهم مهشمة .

أما القبر (D) فهو دائري الشكل يقع إلى الشمال الشرقي من القبر (B) وقد تعرض إلى التخريب ولم يبق منه سوى بعض الأحجار المسطحة التي تغطي الأرضية وفي النصف الشمالي منه توجد بقايا للجدار الدائري بعرض (٧٠سم) ويتكون من صف واحد من

الأحجار المنحوتة وهي بأحجام مختلفة أكبرها (٦٩×١٩سم) وأصغرها(٢٨×١٨سم) هذا ولم يعرف شيء من التقسيمات الداخلية لشدة ما تعرضت له من التخريب .

والقبران (F.G) يقعان شمال القبر (B) على بعد (٣٠٠م) تقريباً وهما على شكل دائرتين متجاورتين لا يفصل بينهما سوى (٩٠سم) استعملت الأحجار المهذبة في بنائهما ولكن بأحجام أقل بكثير من تلك المستعملة في القبور الأخرى وهي بقياس (٣٠ — ٤٠سم) طولاً و (١٠سم) سمكاً وقد تعرض كلاهما لأعمال السرقة والتخريب التي حدثت في أزمان قديمة حيث لم يبق من أساسهما سوى القليل جداً .

والقبر (F) مدور قطره (٦،٦٠م) ولم يبق من جداره الخارجي البالغ عرضه (١١٥ — ١٢٠سم) سوى النصف وبارتفاع خمسة صفوف، وكل ما يمكن معرفته من التقسيمات الداخلية هو سمك الجدار (٩٠سم) يتجه من الشرق إلى الغرب، والقبر (G) دائري الشكل أيضاً قطره (٦،٤٠م) وهو يشبه القبر السابق يبلغ عرض جداره الخارجي (١،١٠م) أما تقسيماته الداخلية فلم يبق سوى أربعة صفوف من الأحجار بطول (٣٠ — ٤٠سم) وسمك (١٠ — ١٢سم) ويقسم المدفن إلى قسمين على غرار القبر (F) والأرضية ممهدة بالمصاطب الحجرية(١٥) .

ومن أهم قبور (هيلي) القبر المسمى بقبر هيلي الكبير، الدائري الشكل قطره (١١،٦٠م) وارتفاعه (٣،٨٥م) مقسم من الداخل إلى قسمين بمرور وسطي وكل قسم مقسم إلى جزئين، أي أن عدد الغرف أربعة، والجدار الخارجي دائري الشكل، يتألف من ثلاثة صفوف، ارتفاع الصف الأول (١،٥٠م) عدا حجارتي المدخلين حيث يبلغ ارتفاع كل منهما (٣،٢٨م) (٣،٨٠م) أما ارتفاع الحجر في الصف الثاني فيتراوح بين (٤٠ — ٦٠سم) وهكذا نلاحظ أنه كلما زاد ارتفاع القبر قل ارتفاع وطول الحجر للتخفيف من وزنه وتسهيل حمله وتركيبه(١٦) **(شكل رقم ٣)** .

والحقيقة أن هذا القبر يعتبر قمة ما وصل إليه فن البناء والنحت في هذه المنطقة في تلك الحقبة الزمنية، ليس فقط في سعته وعلو ارتفاعه، بل في حجم أحجاره وصعوبة نقلها ونحتها وزخرفتها، إذ يبلغ وزن بعضها خمسة أطنان تقريباً، وطولها يقارب الأمتار الثلاثة وارتفاعها يقارب المترين، بعضها يحوي فتحات دائرية منحوتة في الوسط بقطر (٢٥ — ٣٠سم) بمثابة منافذ للتهوية أما حجارة المدخلين فيبلغ ارتفاع كل منهما

ثلاثة أمتار، وقد نحتت المدخل في النصف الأسفل منها تقريباً على شكل فتحة مثلثة الشكل رأسها الأعلى مدور وطول قاعدتها (٦٨سم) وارتفاعها (٧١سم) أما ارتفاع القاعدة على الأرض فيبلغ (٩٢سم) وقد نحتت فوق الفتحات بعض الرسوم البارزة[١٧] .

إن قبور هيلي بصورة عامة دائرية الشكل مشيدة من الحجر الرملي المقطوع بانتظام وهي تماثل قبور أم النار، والقبر الرئيسي (الكبير) في هيلي كان أكثر إتقاناً في بنائه من البنايات الأخرى الموجودة على الساحل فالحجارة التي استعملت في بنائه أكبر حجماً بكثير من الحجارة المستخدمة في قبور أم النار[١٨] .

وفي الجزء الشمالي من (رأس الخيمة) أثبت المسح الأثري الذي قامت به البعثة الدنماركية أن المباني من القبور والمنازل ذات قواعد قوية وصلبة، وهذا مكنها من الخلود عند مداخل الوديان، فعثر على بعض شواهد القبور في وادي (غليلة) وهي عبارة عن بناء حجري يعلوه سقف تغطيه أحجار أصغر حجماً، ويبلغ ارتفاع البناء نحو (١٦ قدماً) كذلك عثر على مقابر مختلفة الأنواع قرب مدخل وادي (جحيل) إلى الجنوب، وتأخذ هذه المقابر شكل بناء حجري مستطيل يضم قباباً عند الأطراف، وتكسو القبر كتل حجرية كبيرة، كما توجد أحجار تؤلف زاوية قائمة من الكتل الحجرية، مما يظهر بأنه المدخل الوحيد الموجود في المنتصف، ويعد هذا الوادي منطقة هامة للبحث الأثري لاسيما وأنه يضم قلعة حجرية عند مدخله قرب (جلفار)[١٩] الميناء القديم الذي اشتهر في العصر الإسلامي .

أما في موقع (بديع بنت سعود) فقد قامت البعثة الدنماركية بالتنقيب في ستة قبور من مجموع أربعين قبراً، كما قامت دائرة الآثار في دولة الإمارات العربية المتحدة بالتنقيب في هذا الموقع بين سنتي (٧٣ – ١٩٧٥م) وتميزت قبور هذا الموقع بأن أغلبها دائري الشكل عدا القبر رقم (٣) وهو قبر مستطيل الشكل طوله (٨م) وعرضه (٦م) وهو مقسم إلى أربع غرف، بني من الأحجار غير المهذبة بقياس معدله (٢٠×٢٠×٥٠سم) وقد استعمل الرمل المزوج بالطين لربط الحجارة، وترتفع جدرانه ما بين (١ – ٢م) ولم يعثر على دلائل تشير إلى وجود مدخل خارجي[٢٠]، ويعد هذا القبر المستطيل الشكل استثناءً بدون شك بين بقية القبور الدائرية ويعود إلى فترة لاحقة متأخرة (الألف الأول ق.م)

ويمثل البناء المستطيل في موقع القطارة[٢١] الذي عثر فيه على قبور مستطيلة الشكل معظمها قبور جماعية[٢٢] .

أما القبور الدائرية فأفضل مثال عليها القبر رقم (٧) الدائري الشكل بقطر (٧,٢٠م) المقسم من الداخل إلى ستة لحود بواسطة جدارين متجهين من الشمال إلى الجنوب وسطهما فتحتان متقابلتان، كما عثر على قبور أخرى كلها ذات شكل دائري مثل القبور ذات الأرقام ١٨، ١٥، ١٦، ١٧، ٢، ٤، ٢٠، ٢١[٢٣] ويعتقد أحد الباحثين أن القبور الدائرية في موقع (بديع بنت سعود) تمثل مرحلة متقدمة عن قبور جبل حفيت[٢٤] .

ومن أكبر المواقع الأثرية في دولة الإمارات موقع القصيص (١٢٠٠ – ١٠٠٠ق.م)[٢٥] وقد عثر فيه على قبور جماعية وانفرادية، ومنها أحد القبور المستطيلة الشكل أبعاده (٧,٥×١,٥م) شيد من حجارة الفروش الكبيرة الحجم، واستعمل الطين لربطها، له مدخل يقع في منتصف الجدار، يبدأ بممر قصير يؤدي إلى باب ثم إلى دكـــة أبعادها (٧٠×٦٠ سم) وارتفاعها عن سطح أرضية القبر (٥٠سم)، وقد عثر على هياكل عظمية بدون جماجم وهذا مثير للتساؤل، لاسيما أن عظام الجماجم أصلب من بقية عظام الهيكل الأخرى، لكن مدفناً آخر قريباً منه من نفس الموقع ومعاصر له عثر فيه على جماجم بشرية، والتفسير الوحيد لهذه الظاهرة هو وجود أكثر من مجموعة بشرية في موقع القصيص كل منها له تقاليد خاصة على الأقل في مراسم وطرق الدفن، ويتبين أن القبر قد استعمل لدفن أفراد عائلة واحدة، وكان الملحود يوضع على أرضية القبر مع هدايا جنائزية، ثم يغلق باب المدفن لحين استعماله مرة أخرى لدفن شخص آخر، ويلحق بالقبر ثلاث غرف مع مصطبة خارج جدران الغرف، ربما كان الغرض منه إجراء مراسيم الدفن فيها قبل وضع الميت في القبر، أي تبدأ مراسم الدفن في الغرف المجاورة وتنتهي بوضعه على أرضية القبر مع كامل عدته، والتي كانت تضم فضلاً عن الهدايا بعض الطعام والشراب، بدليل عثورنا على بعض العظام الحيوانية[٢٦] وعثر في نفس موقع القصيص على قبر انفرادي عند الزاوية الغربية لأحد القبور الجماعية، وهو مستطيل الشكل (١,٦٠×٠,٦٠م) وعثر على هيكل عظمي كامل بهيئة القرفصاء، وموضوع على جانبه الأيمن ورأسه متجه نحو الجهة الجنوبية الغربية، وكلتا يديه تستريحان تحت القسم الأيمن للجمجمة، وأهم المعثورات التي دفنت معه هو قطعة رقيقة من الفضة

مستطيلة الشكل على جبهة عظم الجمجمة، وفي كل نهاية من هذه القطعة ثقب صغير مما يدل على أنها كانت تشد حول جبهته أي أنها كانت نوعـــاً من الحلي، أبعـادها (١٠×٩ملم) وسمكها أقل من (١ملم) .

كما عثر على قبر آخر قربه ملاصق للقبر الجماعي، مستطيل الشكل (١×٠,٥٠م) وعثر فيه على بقايا هيكل عظمي (عظم الحوض وعظام السيقان) وقرب عظم الحوض عثر على خنجر برونزي مع رءوس سهام، ويستدل من تشابه المعثورات في القبر الجماعي والقبرين الانفراديين على أنهما يعودان إلى نفس الحقبة الزمنية (**شكل رقم ٤**) وبعد عشرة أمتار شمال هذه القبور عثر على قبر جماعي أبعاده (٦,٧٠×١,٢٠م) وفي مدخله دكة حجرية ترتفع عن سطح أرضيــة القبر (٥٠سم) ومعالمه تشبه معالم القبر الجماعي السابق .

وعلى مسافة (٤٠م) باتجاه الجنوب الشرقي تم الكشف عن مجموعة من القبور الانفرادية تقدر بـ (٢٤) قبراً ضمن مساحة البحث (٤٠×١٣م) وهذه القبور تتباين في الأشكال والمساحات والأحجام والأعماق أي لبس لها نظام ثابت، كما أن هدايا الملحود غير محددة بعدد أو نوعية، فبعض القبور المستطيلة الشكل مثلاً غالباً ما تكون عميقة وغنية بالهدايا الجنائزية، وتحتوي على رف وتجويف مخصص للهدايا يقع على مستوى أرضية الملحود، أما القبور الدائرية فتكون غير عميقة وفقيرة في معثوراتها وهي لا تتعدى في بعض الأحيان كأساً فخارية أو إناءً حجرياً ولا تحتوي على رف أو تجويف، وبين كل هذه القبور لم يعثر سوى على قبر واحد فيه هيكلان عظميان واحد فوق الآخر وهما بهيئة القرفصاء .

عموماً فإن عادة الدفن كانت تجري كالآتي : يقطع القبر في الأرض الكلسية (السبخة) بعمق يتراوح بين (٢٢٠ — ٨٠سم) أما معدل **طوله** ٢٠٠(— ٧٠سم) وعرضه (١,٥ — ٠,٥م) ويحتوي القبر في العادة على رف بأبعاد تتراوح ما بين (١٥٠ — ٨٠سم) وأسفل هذا الرف تخصص مساحة لوضع الميت أبعادها في الغالب تساوي أبعاد الرف، وعلى طول المساحة المخصصة لوضع الميت هناك تجويف يمتد أفقيا إلى مساحة (٢٥سم) وارتفاع (٢٠سم) يخصص لوضع الآثار الجنائزية .

أما طريقة الدفن فبعد وضع الميت والذي يكون أغلب الظن ملفوفاً بالقماش (عثر على قطعة من القماش ملصقة بأحد الخواتم البرونزية الذي كان بأحد أصابع الميت) ويكون بهيئة قرفصاء، وتوضع إحدى يديه تحت رأسه بعد ذلك ويوضع في التجويف الأثاث الجنائزي ثم يغلق التجويف بواسطة حجارة صغيرة، وتوضع بجانبه بعض الهدايا . وكان يوضع قريباً منه كمية من الطعام الذي يحوي لحم حيوان إضافة إلى الشراب، بعد ذلك يغطى القبر بقطع كبيرة من الأحجار أي أنه لا يوارى بالرمال أو التراب[٢٧] .

وفي الحيز الثالث من موقع (مليحة)، الذي يعتقد بأنه يعود إل الحقبة الهلنستية كشف عن قبر مربع الشكل (٣,٦٥م٢) ذي جدران بسمك (٧٥سم) مشيد بالطابوق المربع المصنوع من الجص (٤٥×٤٥×١٢سم) أما جدران هذا القبر فتغور إلى عمق (٣,٥م) ويبدو أنه كان ظاهراً بارتفاع مترين فوق سطح الأرض[٢٨] .

٢ ـ المنازل والمعابد :

إن قلة الوحدات البنائية (المساكن والمعابد) في مراكز الاستقرار في المواقع الأثرية في الإمارات العربية المتحدة، يعلل أن الذين استقروا، كانوا يقطنون مساكن مشيدة من مادة قابلة للآندثار (عرائش) قد تكون من مادة سعف النخيل أو من جلود الحيوانات أو الصوف، لكن أسسها مشيدة من مواد كلسية، وتشييد الأسس من مادة صلبة والجدران من مادة خفيفة الوزن وسهلة التشييد يعود إلى كون الرمال مادة غير صلبة (هشة) لا تتحمل ثقل الجدران، فضلاً عن التكاليف والجهد القليل الذي يخصص لبناء مثل هذه الوحدات البنائية وفي موقع أم النار عثرت البعثة الدنـــماركية على بيت تبلـغ مساحته (٣٠٠م٢) وقسمه الداخلي مقسم إلى سبع غرف مستطيلة عرضها جميعاً ثلاثة أمتار وطولها (١١م)، وبنيت الدار بمستوى الصخور المنحدرة قليلاً باتجاه الشاطئ، وكان سمك الجدران (٩٠سم) وهي من الحجر الجيري المتوافر في المنطقة واستعمل الطين في

البناء وبقلة وهنا وهناك بوابات بين الغرف عرضها (٨٠ – ٩٥سم)، والأقسام العليا من الجدران والسقف لابد أنها كانت مكونة من مواد سريعة التلف[٢٩].

ومن أفضل المواقع التي عثر فيها على بيوت هو موقع (هيلي) فقد اكتشفت بيوت سكنية كاملة تقريباً، وتراكم الرمال حول هذه المساكن صانها من الانهيار، وبعد الكشف عنها تبين بأنها صغيرة المساحة شيد أساسها على طبقة صلبة من (المدر) وطليت جدرانها بالجص، وكشفت البعثة الفرنسية عام (١٩٧٥م) عن سراديب ملحقة بهذه البيوت ربما استخدمت للخزن أو الاستفادة منها وقت القيلولة، لاسيما أن مناخ منطقة العين حار جاف طيلة أيام الصيف، كذلك هذه البيوت تحوي في بعض الأحيان ممراً ضيقاً قصيراً، ومن بين هذه البيوت، ما يتراوح ارتفاعه الأصلي بين (٣ – ٣,٢٠م) وفي أعلى جدرانها تشاهد إلى الآن المزاريب الفخارية والتي توحي بوجود نظام لتصريف مياه الأمطار وربما كانت الأمطار غزيرة عكس ما هي عليه في الوقت الحاضر[٣٠].

وإلى الشرق والشمال من منطقة (هيلي) على طول جبال (أوحا) هناك عدد من التلال لابد وأنها كانت تضم بنايات مشيدة من اللبن، وعثر في أحد التلال على قلعة أو برج مراقبة دائري الشكل قطره (٢٤م) في وسطه بئر، محاط بخندق عرضه خمسة أمتار وعمقه أربعة أمتار ولم يعثر فيها على أية آثار[٣١].

ومع شديد الأسف تعرض موقع (قطارة) إلى التخريب نتيجة لحفر الآلات الميكانيكية، وكان من الممكن التعرف على العمارة السكنية من خلاله، وكل ما تبقى منه أسس حجرية من ثلاثة صفوف تشكل غرفة مستطيلة الشكل طولها المكشوف (٩,٧٠م) وعرضها (٢م)، أما جدرانها فلم يتبق منها سوى الأجزاء السفلى بارتفاع (٥٠سم) ولهذه الغرفة مدخل عرضه (٨٥سم) يتكون من حجرتين متقابلتين وقد استخدمت في هذا الموقع الحجارة المهذبة والمقطوعة بشكل جيد[٣٢].

وفي موقع (تل رميلة)[٣٣] قامت البعثة الدنماركية في بداية الستينات بالتنقيب أيضاً واكتشفت بعض الأسس المشيدة من (المدر) والطين وتمثل هذه الأسس غرفاً واسعة لها مداخل وأرضيات، كما أن جدرانها الخارجية والداخلية كانت مطلية بمادة الجص، وقد شيدت الأسس على أرض رملية (هشة) كذلك قامت مديرية آثار العين بالتنقيب في هذا

الموقع عام (١٩٧٤م) وثبت وجود بيوت سكنية أخرى في هذا الموقع تعود إلى العصر الحديدي، تقع قرب السطح[٣٤].

وعثر في موقع القصيص على ثلاث غرف مستطيلة الأساس، مشيدة من حجر (الفروش) وهي تسمية محلية سائدة في منطقة الخليج العربي لنوع من الأحجار التي تكثر على سواحل الخليج، والحديثة التكوين والقاعدة الأساسية في تكوين هذه الأحجار هي الأصداف البحرية ولحداثة تكوينها فإن البعض منها يحتوي على قطع برونزية أو فخارية، والمادة المستخدمة في ربط هذه الأحجار هي الطين.

إن الشكل العام لهذه الغرف هو الدائري، في منطقة مربعة الشكل (٦,٥م٢) وجدران هذه الغرف يتراوح سمكها ما بين (٥٠ – ٨٥سم) وتقوس إلى الداخل لتعطي شكلاً نصف دائري، وفي منتصف الجدار الشرقي عثر على مدخل صغير عرضه (٥٠سم) يؤدي إلى مدخل الغرفة الوسطى[٣٥].

وكانت أبعاد الغرفة الأولى (٤,٦٠×١,٥٠م) والغرفة الثانية (٤×١,١٠م) أما الغرفة الثالثة فكانت (٤,٦٠×١,٦٥م) كما أن تقوس جدران الغرفة الأولى والثانية، قد أعطى للوحدة البنائية عموماً شكلاً بيضاوياً، وأن الدخول إلى الغرفة الثانية (الوسطية) كان يتم عن طريق الغرفتين الأولى والثالثة، كما كان يتم عن طريق المدخل الرئيسي والشكل العام لهذه الوحدة البنائية يوحي بأنها كانت مسقفة بسقيفة أشبه ما تكون بالقبة، وعلى مسافة (١,١٠م) من الجانب الأيسر من المدخل عثر على مصطبة ملاصقة للجدار المقوس طولها (٢,١٠م) وعرضها (٥٠سم) أما ارتفاعها فيقارب (٤٠سم).

وفي (تل الثعابين) من موقع القصيص والذي يعود إلى نهاية الألف الثانية ومنتصف الألف الأولى قبل الميلاد (لوجود الحديد) كشف عن أسس جدران مشيدة بالحجارة والطين، تمتد من الشمال إلى الجنوب بمسافة (٣,٢٠م) ويوازيها جدار ثان بمسافة (٢,٠٠م) أما الجدار الثالث والذي يمتد من الشرق إلى الغرب بمسافة (٣,٥٠م) ونظراً لكثرة المواد واللقى الأثرية التي تحمل صفة الثعبان والتي عثر عليها ضمن هذه المساحة، فمن المحتمل جداً أن يكون هذا البناء هو الوحيد المشيد من حجر (الفروش) والطين، ويبدو أنه معبد صغير تمارس فيه طقوس عبادة الثعبان وهي من العبادات التي لها آثار في هذه المنطقة كما في اليمن القديم والمدينة الرابعة في البحرين[٣٦].

أما موقعا (الدور)[٣٧] و (مليحة)[٣٨] اللذان يعودان للفترة الهلنستية، استناداً إلى اكتشاف مجموعة من اللقى المستوردة وأحياناً المقلدة من العالم الغربي أو من سواحل البحر المتوسط الغربية فلا يمكن تحديد تاريخ لها إلا قبل القرن الثالث قبل الميلاد[٣٩] بينما حددته البعثة العراقية الآثارية بالقرنين الرابع والثالث قبل الميلاد[٤٠]، كذلك تشير المصادر الكلاسيكية (اليونان والرومان) إلى أن الإسكندر المقدوني (ت ٣٢٣ق.م) أرسل ثلاثة من قواده البحريين لاكتشاف الساحل الجنوبي من الخليج العربي ووصل أحدهم وهو (هييرون Hieron) إلى نقطة يعتقد أنها عند منطقة رأس الخيمة في الوقت الحالي[٤١] كما كان لسكان الساحل الشرقي من الخليج العربي علاقات واسعة، ولاقت مناطق سكناهم اهتماماً خاصاً في الكتب الكلاسيكية[٤٢] .

وموقع (الدور) كما يسمى في الوقت الحاضر جاءت تسميته نتيجة لوجود الدور السكنية المنتشرة والتي طمرت بفعل العوامل الطبيعية، وفي أحد مرتفعات المستوطن كشف عن قلعة ذات جدران سميكة أقيم في كل ركن من أركانها برج دائري غير منتظم، أما جدران هذه القلعة فلم تشيد بأسلوب هندسي منتظم، إذ تختلف أبعادها من الخارج والداخل اختلافاً واضحاً، وقد اكتشفت داخل سور هذه القلعة غرفة مستطيلة الشكل (٤,٤٠×٣م) ملاصقة للضلع الممتد بين البرج الشمالي والبرج الشرقي وهي مشيدة بالحجر غير المهذب إذ يبلغ سمك جدرانها (٧٠سم)، وفي وسط الساحة اكتشفت غرفتان أخريان أبعادهما (٦,٥٥×٦,٢٠م) و (٦,٠٥×٦,٢٥م) يؤدي إليهما مدخلان كائنان على استقامة واحدة[٤٣] .

وفي الحيز الأول من موقع (مليحة) ظهرت بقايا غرفة مشيدة باللبن لم يتبق منها سوى الأسس حيث اندثرت الأجزاء الأخرى وقد استعمل اللبن غير المنتظم والمعمول من طينة ممزوجة بفتات الكلس في بناء هذه الغرف ويقدر سمك كل لبنة (٥١سم) تقريباً ولقد أقيمت أسس هذه الأبنية فوق الرمال مباشرة حيث أن عوامل التعرية من أمطار ورياح تسببت في إزالة أقسام كبيرة منها .

في الحيز الرابع (**شكل رقم ٥**) كشف عن قصر كبير يتألف من غرف ومرافق متعددة مشيدة باللبن كسيت أرضيتها بطبقة من الجص، ولقد أصاب هذا البناء حريق كبير حدث في الأزمنة القديمة حيث أن جميع الجدران والأرضيات وجدت محروقة

بشدة، وهذا يعني تعرض المنطقة لهجوم ربما كان خارجياً وقد كشفت البعثة العراقية في الموسم الأول (١٩٧٣م) عن ثماني غرف وما تزال غرف أخرى تنتظر يد المنقبين، وهذه الغرف تختلف من حيث السعة والاستعمال ويختلف سمك جدرانها من (٧٥سم) إلى (١,٧٠م) وأكبر هذه الغرف (٣) وتبلغ مساحتها (١٠,٨٠م×٤,٤٠م) ولها ثلاثة مداخل ذات عتبات، أما المدخل الرئيسي فيبلغ عرضه متران ويقع في الضلع الشرقي من القاعة وينفذ إلى ساحة خارجية وقد أغلق هذا المدخل في أدوار متأخرة بواسطة أحجار غير مهذبة، أما المدخلان الآخران فهما جانبيان كل منهما ينفذ إلى غرفة، إحداهما بقياس (٥×٣م) والأخرى (٠,٣٦×٣م) .

وقد عثر في القاعة الكبيرة (٣) على كثير من المواد الأثرية منها كميات من الأطعمة كالتمر والحبوب ويظهر أن هذه المواد الغذائية كانت مخزونة، حيث عثر على أمثلة منها، وتلي القاعة رقم (٣) من حيث السعة القاعة رقم (١) فمساحتها (٨,٥٥م×٣,٤٥م) كشف في ضلعها الشرقي على أربع كوّات للخزن، وقد عثر في إحدى هذه الكوات على جرة خزفية متوسطة الحجم وفي الكوة الثانية عثر على مجرفة من الحديد، أما الضلع الجنوبي فقد أقيمت في منتصفه دكة من اللبن ذات درجتين، وجد فوق السفلي منها وعاء حجري ربما كان مسنداً لجرة من الفخار، أما الغرفة رقم (٥) فطولها (٤,٨٠م) وعرضها(٢,١٠م) عثر فيها على موقد للنار أما الغرفتان (٧) و(٨) فمتشابهتان من حيث الحجم إذ يبلغ طول كل واحدة منهما (٥,٧٠م) وعرضها (٣,٢٥م) لكل منهما مدخل يطل على الساحة وعثر في داخل الغرفة رقم (٨) على مجموعة من كسر الزجاج وعدد من الخرز المصنوع من الأحجار الكريمة وبعض العاجيات والصدف أما الغرفة رقم (٧) فعثر في داخلها على سوار من الزجاج وقد عثر في الغرفة رقم (٤) على نقد من نحاس تالف[٤٤]، وهذا يدل على أنها ربما كانت غرفاً مخصصة للنوم .

من هذا كله يمكن القول : أن الوحدات البنائية (العمارة) في المواقع الأثرية لدولة الإمارات العربية المتحدة، تتميز بالبساطة، إلا أنها متينة، لها أسس مكونة من الأحجار المحلية (الفروش) ربطت بالطين، بعد أن بنيت على سطح الأرض مباشرة دون الحفر .

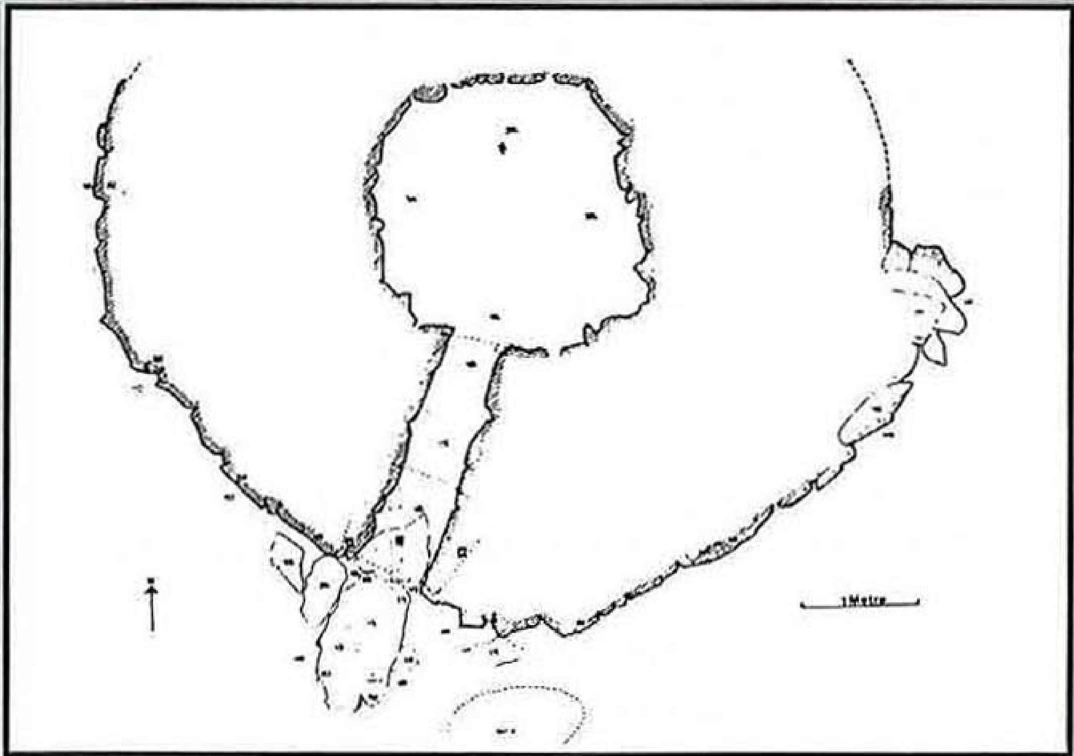
ومن مميزات المواقع الأثرية كثرة القبور بالقياس للمنازل والمعابد، ويعتقد أن الذين استقروا كانوا يقيمون مساكن مشيدة من مادة قابلة للاندثار (عرايش) قد تكون من مادة سعف النخيل أو جلود الحيوانات أو الصوف، إلا أن أسسها مشيدة من مواد كلسية ومعظم القبور مشيد على النظام الدائري إلا القليل، فهي ذات جدار دائري على شكل حلقة ينحني إلى الداخل قليلاً، وفي الداخل يقسم إلى عدد من الغرف بواسطة جدران وكان القبر والغرف مسقفة بقطع صخرية مستوية، تثبت على الجدران التي تكون عريضة لتسهيل التسقيف، وكانت الغرف الجنائزية تتسع لأكثر من جثة واحدة، ويظهر أن بعض القبور استخدمت أكثر من مرة .

ويظهر أن الميت كان يُلف بقطعة من القماش (كفن) أو يدفن بملابسه، وهناك احتمال أن بعض الموتى يدفنون خارج القبر، وقد عثر على هياكل عظمية مع أوعية خارج القبور، وربما كانوا من حاشية صاحب القبر أو ممن هم أدنى مرتبة .

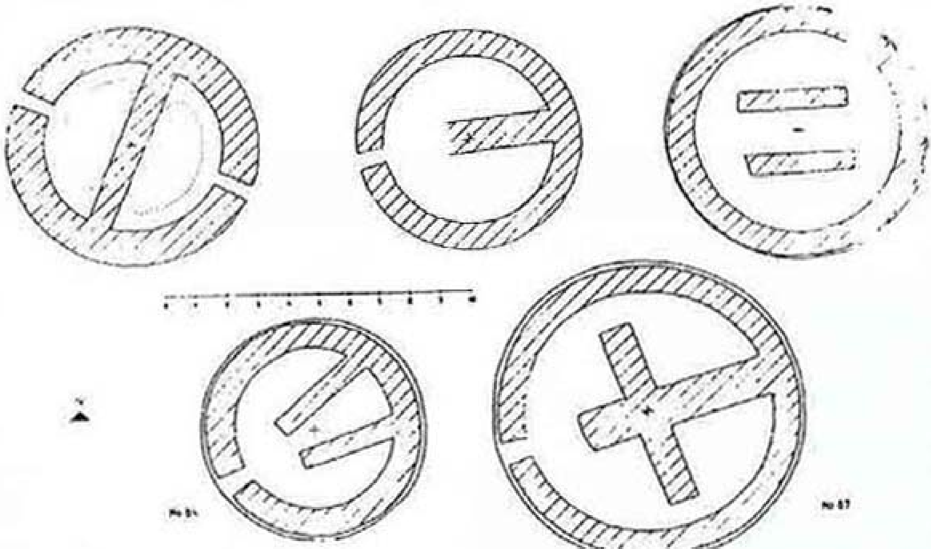
أما طريقة تسجية الميت فتكون على جانبه والرأس متجهاً إلى الشرق . والأرجل إما مدورة أو مكورة (وضع القرفصاء) واليدان تحت الرأس، وأن وجود الأثاث الجنائزي يدل على اعتقاد الناس بفكرة الحياة بعد الموت، كذلك يعلل الرفاه الاقتصادي الذي كانت تتمتع به هذه المناطق .

الدكتور جواد مطر الحمد

كلية الآداب – جامعة بغداد



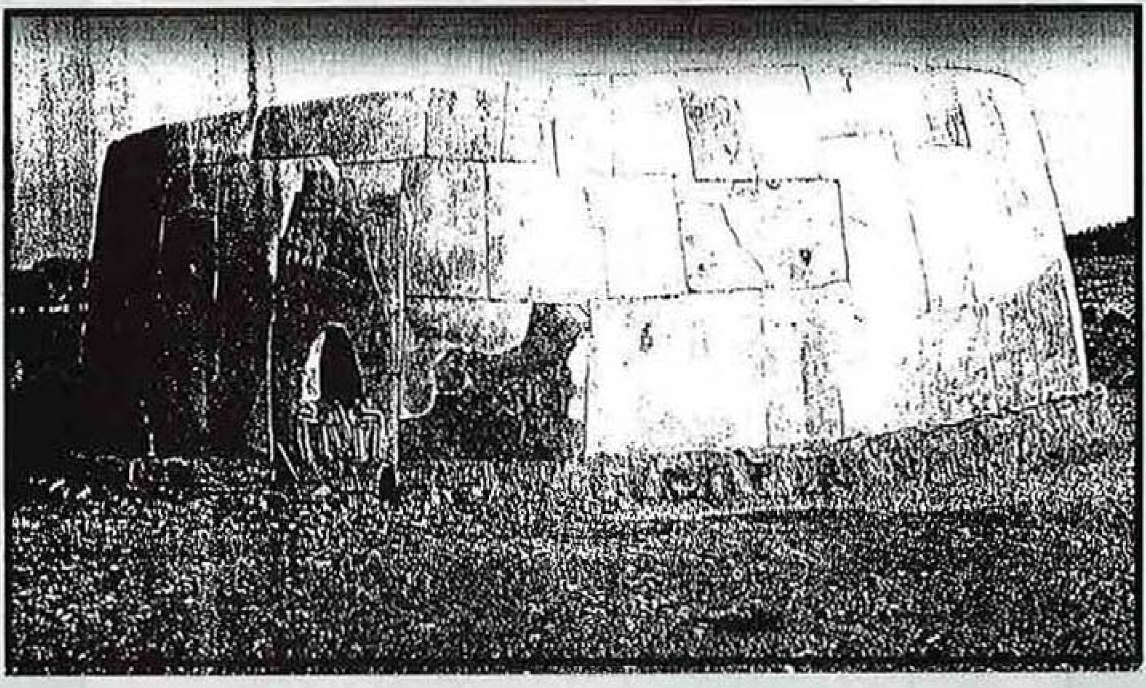
شكل (١) مخطط القبر رقم ١٣١٧ من جبل حفيت



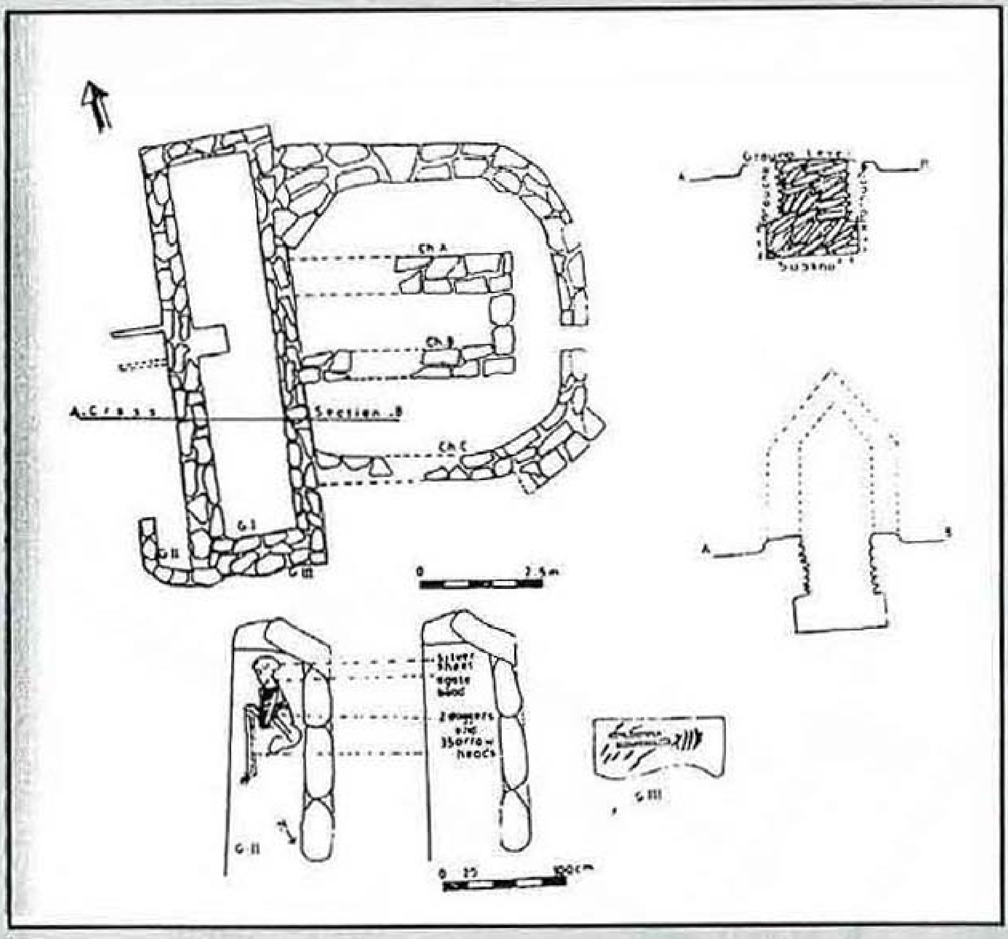
مدافن (بات) من عمان



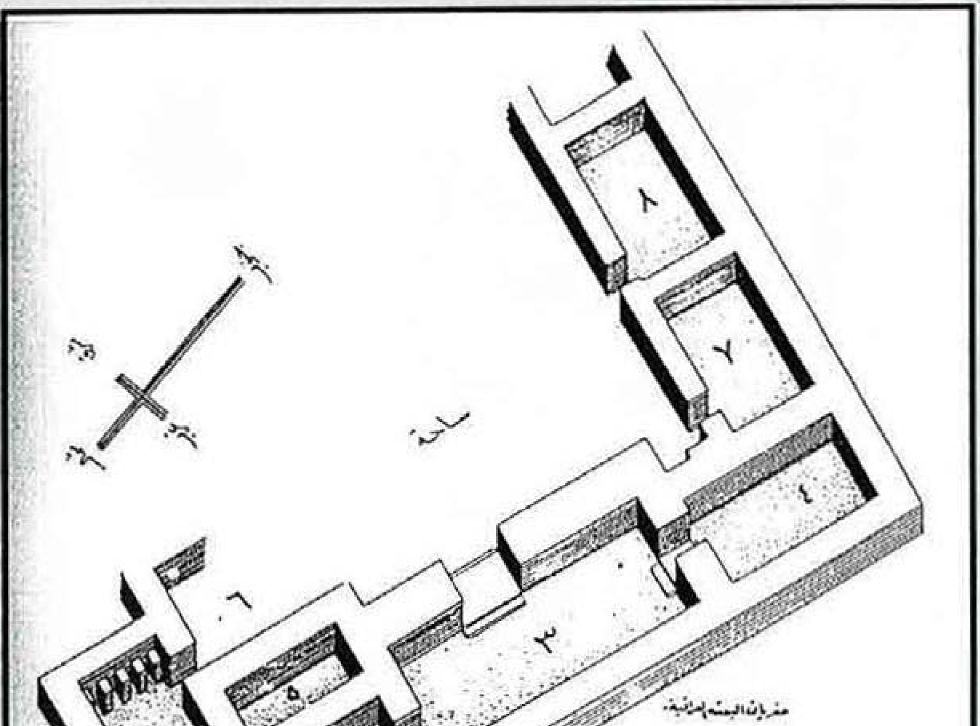
شكل (٢) مدافن جزيرة أم النار



شكل رقم (٣) قبر هيلي الكبير



شكل رقم (٤) مدافن القصيص



شكل رقم (٥) – موقع مليحة

المصادر والهوامش

١ – يقع جبل حفيت في مدينة العين (إمارة أبوظبي) يبلغ ارتفاعه أربعة آلاف قدم .
٢ – الآثار في دولة الإمارات العربية المتحدة، إعداد : دائرة الآثار السياحية (أبوظبي، مؤسسة الظواهر للطباعة والنشر، ١٩٧٥م) ص١٦ .
٣ – ن.م، ص ص ١٦ – ٢٠ .
٤ – سامي سعيد الأحمد، تاريخ الخليج العربي من أقدم الأزمنة حتى التحرير العربي (البصرة، مركز دراسات الخليج العربي، ١٩٨٥م) ص ص٩٧,١٠١ .
٥ – الآثار، ص٢٠ .
٦ – سامي سعيد الأحمد، تاريخ الخليج العربي، ص ص٩٧-٩٩ .
٧ – ن.م، ص ص٩٧، ٩٩-١٠١ .
٨ – جزيرة صغيرة تقع مقابل إمارة أبوظبي، مساحتها ثلاثة كيلومترات طولاً وكيلومتر عرضاً .
٩ – الآثار، ص ص٢٢-٢٦ .
١٠ – سليمان سعدون البدر : منطقة الخليج العربي خلال الألفين الرابعة والثالثة قبل الميلاد (الكويت، مطبعة الحكومة، ١٩٧٤م) ص١٦٦ .
١١ – الآثار، ص ص٧٦-٧٧ .
١٢ – سامي سعيد الأحمد : تاريخ الخليج العربي، ص ص١١٨، ١٤١ .
١٣ – يقع على بعد عشرة كيلومترات شمال مدينة الأمين في إمارة أبوظبي .
١٤ – الآثار، ص ص٣٠-٣٢ .
١٥ – ن.م، ص ص٣٢، ٣٥-٣٧ .
١٦ – سامي سعيد الأحمد : تاريخ الخليج العربي، ص١٢ .
١٧ – الآثار، ص٧٧ .
١٨ – سامي سعيد الأحمد : تاريخ الخليج العربي، ص١١٥ .
١٩ – سليمان سعدون البدر، منطقة الخليج العربي، ص١٦٤ .
٢٠ – الآثار، ص٤٥ .
٢١ – يقع على الحدود ما بين عمان ومدينة العين (أبوظبي) .
٢٢ – سامي سعيد الأحمد : تاريخ الخليج العربي، ص١٠٥ .

٢٣ — الآثار ص ص٤٧-٤٩ .

٢٤ — سامي سعيد الأحمد، تاريخ الخليج العربي، ص١٠٥ .

٢٥ — يقع شمال شرقي مدينة ديرة في إمارة دبي بمسافة ثلاثة كيلومترات .

٢٦ — منير يوسف طه، اكتشاف العصر الحديدي في دولة الإمارات العربية المتحدة (البصرة، مركز دراسات الخليج العربي، ١٩٨٩م) ص٧٨ .

٢٧ — ن.م، ص ص ٨٦، ٨٨، ٩٢-٩٥ .

٢٨ — الآثار، ص٦٠ .

٢٩ — سليمان سعدون البدر، منطقة الخليج العربي، ص٥٥ .

٣٠ — منير يوسف طه، اكتشاف العصر الحديدي، ص ص١٣١، ١٩٧ .

٣١ — سامي سعيد الأحمد، تاريخ الخليج العربي، ص١١٤ .

٣٢ — الآثار، ص٣٩ .

٣٣ — يقع بين موقع هيلي وقطارة .

٣٤ — منير يوسف طه، اكتشاف العصر الحديدي، ص١٩٦ .

٣٥ — ن.م، ص ص ٧٤-٧٥ .

٣٦ — ن.م، ص ص١١٣، ١١٦، ٢٠٧ .

٣٧ — يقع في إمارة أم القيوين على الطريق العام الذي يربط الشارقة برأس الخيمة .

٣٨ — يقع في أراضي إمارة الشارقة، ويبعد عن الساحل حوالي (٦٠كم) .

٣٩ — ريمي أبوشارلات، من العصر الحديدي إلى العصر الهلنستي — شواهد من مليحة، ترجمة رعد عبد الجليل جواد، (الشارقة، مجلة دراسات، العدد الأول ١٩٩٠م) ص١٢٥ .

٤٠ — الآثار، ص٥٨ .

٤١ — لطفي عبد الوهاب يحيى، العرب في العصور القديمة (بيروت، دار النهضة العربية ١٩٧٩م) ص٤٢٢ .

٤٢ — ينظر : ناصر حسين العبودي، الخليج العربي في المصادر اليونانية القديمة، (الشارقة، مجلة دراسات، العدد الأول ١٩٩٠م) ص ص١٣٣-١٣٤ .

٤٣ — الآثار، ص٦٤ .

٤٤ — ن.م، ص٦١ .

ملحق من كتاب (العمران التقليدي في دولة الإمارات العربية المتحدة) لمؤلفه الأستاذ الدكتور محمد مدحت جابر عبد الجليل / من منشورات مركز زايد للتراث والتاريخ (العين) ٢٠٠٠م .

الجغرافيا التاريخية للعمران

في دولة الإمارات العربية المتحدة

على الرغم من أن الأبحاث الخاصة بالتاريخ القديم لدولة الإمارات محدودة عموماً، إلا أن النتائج الأثرية الخاصة بالعمران القديم محدودة للغاية، ومع ذلك فهي كافية لتأكيد أن المنطقة عرفت الاستقرار والحضارة منذ زمن موغل في القدم . وتفترض "كاي Kay" أن السكان قد عمروا أرض الإمارات خلال فترة مناخية رطبة استمرت ما بين ٩٠٠٠ – ٦٠٠٠ سنة سبقت، ويدل على ذلك العديد من الآثار التي وجدت عند خضيض المناطق الجبلية[١] . وهناك دلائل على بداية ارتباط العمران القديم بالسواحل في العصور الحجرية والمعدنية، على الرغم من تذبذب خط الساحل الذي قضى على كثير من الآثار الدالة على ذلك[٢]، ومعظم المحال كانت محال صيد ترجع لحوالي ٦٠٠٠ – ٧٠٠٠ سنة مضت، وبعد هذا التاريخ وحوالي ٢٠٠٠ – ٣٠٠٠ سنة مضت كان سطح البحر أكثر ارتفاعاً عنه الآن بحوالي متر واحد، وامتدت الكثبان الرملية على طول خط الساحل، وبين الكثبان والبحر انتشرت اللاجونات والخلجان، التي ملأتها الرواسب وتمثلها السبخات الحالية . وقد وفرت هذه اللاجونات موانئ ومرافئ لقوارب الصيد، وزودت السكان بالغذاء البحري، كذلك كانت غنية بأشجار المانجروف، وهي مصدر مهم للوقود والخشب اللازم للبناء، كذلك زودت الإنسان بأنواع الحياة البرية التي كانت غنية بها .

أما سكان المناطق الداخلية فقد أثر توافر الماء في اختيار مواضع العمران، وهكذا حظيت مواضع، مثل الواحات ومقدمات جبل حفيت، بمراكز عمرانية سكنت منذ أكثر من ٥٠٠٠ سنة[٣]، وفي هذه المواضع توجد أقدم المقابر الأثرية . وهنا بالداخل اختلفت القاعدة الاقتصادية للعمران عنها في المناطق الساحلية حيث مجتمع الصيد، وكان لسكان الداخل تركيبهم الاجتماعي الخاص بهم، وروابطهم التجارية، وعرفوا الزراعة، ويؤكد ذلك آثار منطقة هيلي شمالي مدينة العين التي ترجع للألف الثالث ق.م. حيث عرفوا زراعة الحبوب، وهو ما يغير الآراء السابقة عن معرفة الزراعة في شبه الجزيرة العربية التي اعتاد الأثريون استثناءها من هذا النشاط[٤] .

وقد كان العمران القديم معاصراً له في بعض مناطق الخليج العربي الأخرى ولاسيما في البحرين، حيث قامت مملكة بحرية قديمة هي "ديلمون" منذ حوالي ٥٠٠٠ سنة مضت[٥] . وقد ارتبط العمران أساساً بالجزء الشمالي من البحرين دائماً. ومراكز العمران مثل هيلي تثبت أنها بنيت من اللبن، وكانت جيدة في التنظيم، بل إن بعضها قد احتوى على "المجلس" الذي لازال ملمحاً عمرانياً معاصراً حتى الآن في مباني الإمارات (أحد المنازل في محلة هيلي القديمة وصلت مساحته إلى ٢٥٠ متراً مربعاً، وتكون من ٩ غرف — راجع دائرة الآثار والسياحة — العين ص٨)، كذلك كان بالمنازل شرفات، ودرج يؤدي إلى السطح[٦] . ومقابر جبل حفيت ترجع إلى ٣٠٠٠ سنة ق.م. وهي أدلة على عمران العصر الحجري وكانت مقابرهم تلالية مما يدل على تأثرهم بالسومريين . وقد عملت مراكز العمران في الإمارات كمراكز تجارية مهمة تربط بين السند وفارس وميزوبوتاميا، وقد برع السكان في ركوب البحر كذلك، ويرى بعضهم أن منطقة أم النار (قرب أبوظبي الحالية) ربما تكون إحدى المحطات التجارية القديمة، التي كان يحمل إليها النحاس قديماً من جبال عُمان على ظهور الجمال، ويلاحظ أن آثار الجمال في مستوطنة أم النار أقدم الآثار الدالة على استئناس الجمل في العالم، وكانت منازل أم النار من الحجارة وترجع إلى حوالي ٤٥٠٠ سنة مضت[٧] .

وتدل الدلائل الأركيولوجية على وجود مواضع بالمنطقة الشرقية من الإمارات عرفت استخدام المعدن منذ سنة ٢٠٠٠ق.م. إضافة إلى وجود دلائل على تحول السكان للبداوة بسبب تدهور مستوى الماء في الآبار، وزحف الرمال، وواكب ذلك استئناس الجمل فعضد

ذلك الحياة البدوية ولذلك فالآثار المنتمية للألف الثاني ق.م.[٨] مثل التي وجدت في القطارة قرب مدينة العين، والقصيص قرب دبي، كانت أقل دقة من سابقتها، وتشمل البقايا الأثرية لهذه المدة صناعات معدنية نحاسية، وأدوات، مثل فأس برونزية، ترجع من حيث العمر إلى حوالي الألف الثاني ق.م.في منطقة هيلي[٩] . وتشير الدلائل كذلك إلى وجود محلة عمرانية مهمة في موضع "شمل"في إمارة رأس الخيمة، وهي دليل نادر من أدلة العمران في الألف الثاني ق.م. والمحلة مستطيلة الشكل، وهناك دلائل على شغل الموضع الاستراتيجي، ويطل على واد خصب . وبالقرب من شمل كان يمتد الطريق التجاري الذي يصل إلى ميناء مهم قريب هو جلفار (Julfar) (قرب رأس الخيمة الحالية) . وقد اكتشف العلماء في الموضع أدلة على ارتفاع معدل وفيات الأطفال من ناحية، وعلى انخفاض أمد الحياة لدى الإناث عنه لدى الذكور على عكس الحال في الوقت الحالي في العالم أجمع[١٠]، وقد دعم العمران معرفة نظام الأفلاج في منطقة جبال الحجر، ويعتقد أنه عرف عن إيران خلال الألف الثاني ق.م. حيث عرفه سكان جبال البرز في إيران .

وكلمة فلج مشتقة من اللغة السامية ومعناها التفرع والانقسام . ومن الآثار التي ترجع إلى العصر الحديدي قرية قديمة في منطقة الرميلة قرب العين حيث وجد هناك مستويان للعمران يرجعان عموماً إلى ما بين ١٦٩٥ق.م. — ٦٠٠ق.م. كذلك وجدت في الهيلي آثار ترجع إلى النصف الأول من الألف ق.م. ذات منازل جيدة حتى إنها تبدو للناظر كما لو كانت قد شيدت من عقد أو عقدين من الزمان فقط، وقد وجدت بها بعض آثار العنف الذي قد يكون سبب هجرها حوالي سنة ٥٠٠ق.م. .

وفي العصر الإغريقي الروماني هناك عديد من الأدلة العمرانية تتمثل في القلاع والأبراج المستديرة، ومثالها قلعة الدور في أم القيوين، وقد ساعد على العمران آنذاك في القرن الثالث ق.م. أهمية "جرها" واستخدم العرب ذلك الموضع كمستودع للتجارة مع الهند، ولذلك ساعد ذلك النشاط التجاري على نشأة عدة مدن في ساحل الخليج العربي للإمارات في الشارقة وقرب رأس الخيمة[١١] .

وتشير الفترة الهيلنستية إلى أحد المواضع المهمة عند ساحل أم القيوين حيث موقع ميناء مهم يعرف اليوم باسم عربي هو "الدور" . وتدل الشواهد على أن الموضع العمراني

للمدينة كان يمتد إلى حوالي (كيلومترين)، ووجدت بها آثارٌ من فارس وروما والدولة النبطية في شمال الجزيرة العربية، وعملات معدنية أيضاً، وظهرت من محلات هذا العصر "جرها" التي يعتقد بأن موضعها في مكان ما شرقي الجزيرة العربية و "الدور" أيضاً وما يعنينا بشأن "الدور" الواقعة في منطقة الدراسة أن التجارة الدولية المتنامية في زمنها أثرت في نموها واتساعها، وقد ارتبطت الدور بموضع داخلي مهم عند مليحة، وذلك على طريق القوافل المهم على طول الجانب الغربي لحضيض جبال الحجر، وفي منطقة ذات ماء جوفي قريب من سطح الأرض، وكانت "مليحة" مدينة عامرة كبيرة منذ أكثر من ٢٠٠٠ عام مضت، وقد اكتشف موضعها سنة ١٩٧٠، وفيها قصر كبير من اللبن والعديد من الآثار الدالة على النشاط التجاري بينها وبين جزر أورس، كذلك دلائل على أن مليحة كانت بوابة إلى داخل عمان .

أما في العهد الإسلامي وما قبله، فقد كان موضع "دبا" أهم المواضع العمرانية، وقامت بها سوق كبيرة للعرب قبل الإسلام على درجة كبيرة من الأهمية، وتنافست مع سوق "صحار" في عمان، وكان يأتي للسوق تجار من الجزيرة العربية والصين والهند . وعملت دبا منذ ما قبل الإسلام كمنفذ لتجارة القبائل العربية التي سكنت المناطق الداخلية، وقد اتخذت هذه القبائل من "توام" (قرب العين) عاصمة لها . وكانت السلع المتداولة في دبا وغيرها متعددة، بعضها يأتي من الخارج، ومن أهمها اللبان و"الضجاج"، وهو ينتج صمغاً أبيض اللون يستخدم في تنظيف الملابس وشعر الرأس، وكذلك سلع "الطلوق" و "التامول" وله طعم وميزات القرنفل وأيضاً الزنجبيل والتمر هندي، وقد أشار الطبري في العهد الإسلامي أيضاً إلى "جلفار" قرب رأس الخيمة، ووردت في الكتابات الإسلامية منذ سنة ٧٦هـ، وما بعدها وازدهرت زمن سيطرة البرتغاليين على الخليج في القرن ١٦م[١٢] . وجاءت شهرتها من التجارة البحرية وتجارة اللؤلؤ . وقد سجل "لوريمر" العديد من دلائل العمران ومراكزه في الإمارات، وذلك في دليله الشامل عن الخليج[١٣] . وقد أصبحت الأخوار دائماً طوال تاريخ الإمارات من أهم مناطق الجذب العمراني حتى العصر الحديث .

هوامش

١ – Kay, S., Emirates Arcaelogical heritage, Motivate publishing, Dubai,1986,P.12.

٢ – تأثر العمران بالتطورات الجيولوجية للخليج العربي وخاصة تطوره الباليوجرافي وتذبذب مستوى سطح مياهه في البلايستوسين وفترة الهولوسين – للتوسع راجع : حسن أبو العينين سنة ١٩٩٦م، ص ص١٣٧-١٨٧ .

٣ – Ibid. PP.16-17.

٤ – سيف علي الضبع ، في كتاب الآثار في دولة الإمارات العربية المتحدة – الصادر عن دائرة الآثار في دولة الإمارات – العين – بدون تاريخ نشر – ص٥ .

٥ – Brunsden, D.; Doornkamp,J.&Jones D., The Bahrain surface materials resources survey and its appkication to regional Planning. The Geographical Journal, Vol. 145, Part 1, March, 1979, P.1 .

٦ – السيد سعيد عبد الرحمن – في كتاب الآثار في دولة الإمارات – مرجع سابق ص٨ .

٧ – Kay, S., Op. Cit,.P.22 .

٨ – سامي سعيد الأحمد – تاريخ الخليج العربي منذ أقدم الأزمنة حتى التحرير العربي . منشورات مركز دراسات الخليج العربي بجامعة البصرة – شعبة دراسات العلوم الاجتماعية (٦٧) سنة ١٩٨٥م .

٩ – سيرج كلوزيو – في كتاب الآثار في دولة الإمارات – مرجع سابق – ص١٩-٤١ .

١٠ – Kay, S., Op. Cit., P.38.

١١ – دولة الإمارات العربية المتحدة – الآثار في دولة الإمارات – مرجع سابق . ص٧١-٧٩ .

١٢ – Kay, S., Op. Cit., P.60-26.

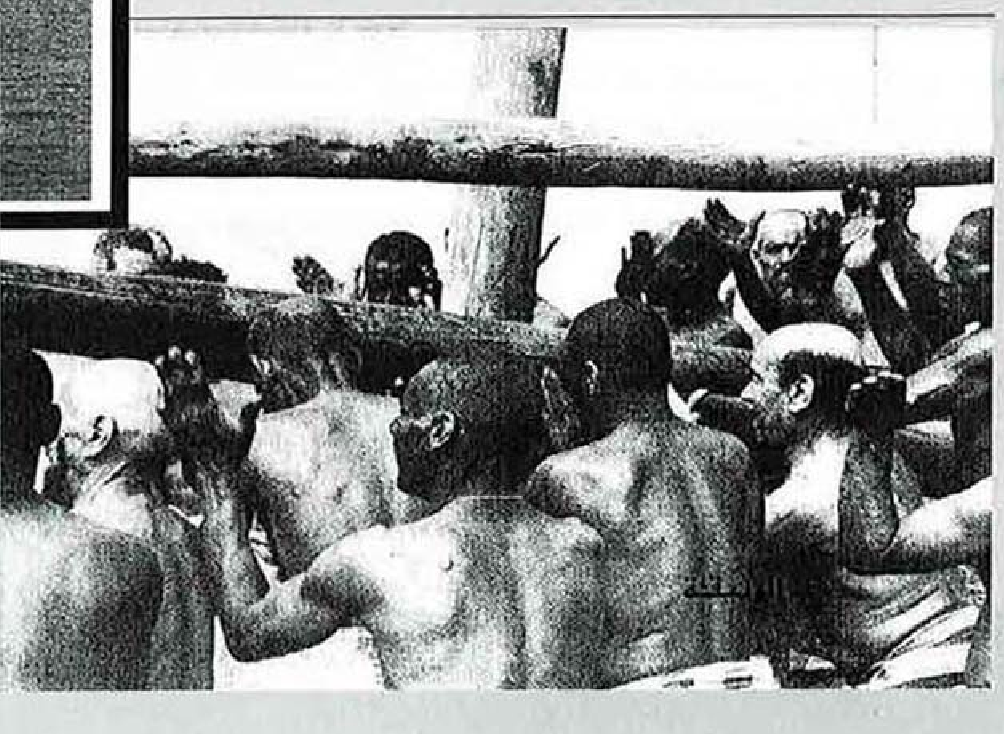
١٣ – لوريمر – دليل الخليج – القسم التاريخي (٦ أجزاء) والجغرافي (٦ أجزاء) الدوحة – بدون تاريخ نشر .

تجارة البحـ

في القرنين الثامن عشر



كان من الطبيعي أن يؤدي موقع البحرين الجغرافي على الساحل الغربي من الخليج العربي وكثرة جزرها البحرية وامتلاك العتوب المهارة الملاحية والخبرة التجارية التي اكتسبوها منذ وطئت أقدامهم سواحل الخليج العربي بعد هجرتهم من نجد بداية القرن الثامن عشر، إضافة إلى دورهم المعروف كوسطاء في المبادلات التجارية بين مدن وموانئ الخليج العربي ودول شبه الجزيرة العربية تارة وبين المراكز التجارية الخليجية ومثيلاتها على ساحل شرقي أفريقيا



التاسع عشر



بقلم : الدكتور
صبري فالح الحمدي



وبلاد الهند تارة أخرى، إلى تبوأ البحرين مكانة طيبة جعلت منها معبراً للتجارة الشرقية وما بين البصرة والهند أيضاً، فضلاً عن ذلك فإن اشتهار البحرين بمصائد اللؤلؤ الغنية والمهارة التي يتمتع بها أهلها في صناعة السفن اللازمة لتوفير الوسائل الضرورية لعمليات النقل البحري بين تلك المناطق، كلها أمور جعلتها تحتل مركز الصدارة في الميدان التجاري عامة وفي تصدير اللؤلؤ إلى العالم الخارجي بخاصة .

إن الأهمية التجارية الاستراتيجية التي تمتعت بها البحرين خلال مراحل التاريخ المختلفة والتي برزت بوضوح مطلع العصور الحديثة، حينما أخذت القوى الأوروبية وأولها البرتغاليون بالقدوم إلى مياه الخليج العربي بداية القرن السادس عشر قد تزايدت في القرون اللاحقة بدليل اشتداد تنافس الشركات الأوروبية فيما بينها كالإنجليزية والهولندية والفرنسية للاستحواذ على خيرات البحرين واستمر ذلك حتى بداية القرن التاسع عشر تقريباً، حين استطاعت بريطانيا الانفراد وحدها في السيطرة على المشيخات العربية وفرض هيمنتها عليها تباعاً بهدف حماية مصالحها التجارية المتنامية في البحرين وباقي أجزاء المنطقة، وعلى الرغم من محاولات بعض القوى الأوروبية احتكار التجارة العربية ووضع العراقيل أمامها عن طريق اتخاذها لإجراءات من شأنها تقييد حرية التجارة والعمل على إضعافها بفرض الرسوم العالية على إيراداتها هذا من جانب، أو بعدم السماح بخروج التجار العرب إلى البحر دون ترخيص من تلك الشركات الأجنبية من جانب آخر، فقد ظلت البحرين تؤدي دورها التجاري الملحوظ في منطقة الخليج العربي طيلة القرن الثامن عشر مع امتلاكها العدد الكبير من السفن وكثرة عوائدها المالية الآتية من تجارة اللؤلؤ، واستمرت تعمل محطة تجارية تأتيها السلع الشرقية كالتوابل والجواهر والعطور والحرير والقطن والأنسجة الشرقية النفيسة لتتولى توزيعها على مدن البصرة ومسقط والزبارة وغيرها وكذلك المناطق الداخلية من شبه الجزيرة العربية، فيما كانت سفن البحرين تقوم بنقل تمور البصرة والقطيف إلى مسقط وقلهات أو بطريق البحر إلى الهند، وهكذا انتعشت الحياة الاقتصادية لسكان جزر البحرين جراء كثرة وارداتها المالية والتي جاءت ثمرة لتنامي الوظيفة التجارية للبحرين واتساع حجم تجارتها مع مناطق الخليج العربي والعالم الخارجي نهاية القرن التاسع عشر.

تمتعت البحرين المؤلفة من مجموعة من الجزر يبلغ عددها (٣٤) جزيرة بموقع جغرافي متميز جعل منها معبراً للتجارة ما بين الهند والبصرة، الأمر الذي حتم على السكان الاهتمام بصناعة السفن لأنها تعد الوسيلة الوحيدة للمواصلات بين الجزر البحرينية والعالم الخارجي،[١] وأشارت المصادر التاريخية إلى أن أهل البحرين يعدُّون خبراء ممتازون في صناعة السفن منذ عصر ما قبل الإسلام وقد ذاع صيتهم في البحار لمهارتهم وشجاعتهم في مواجهة العواصف الشديدة والأنواء المتقلبة، وكانت أشرعة السفن

المصنعة في البحرين لا تقل شهرة عن صيتهم في صيد اللؤلؤ والمرجان وتجارتهما[٢]. والواقع أن امتلاك البحرين ذلك العدد الكبير من السفن وتزايد إيراداتها المالية المتأتية من تجارة اللؤلؤ، إنما يعود إلى أن مغاصها كان مشهوراً منذ عصور تاريخية قديمة وهو أكبر مغاص في العالم[٣]، وقد أصبحت البحرين قاعدة الانطلاق العربي صوب فارس والهند خاصة بعد إنشاء الأساطيل الإسلامية في عهد الخليفة الراشدي عثمان بن عفان (رضي)، وتوسعت القوة البحرية العربية في العهدين الأموي والعباسي، وتطورت العلاقات التجارية العربية من بغداد إلى بلاد الهند عبر موانئ الخليج العربي التي انتعشت في العهد العباسي كالبحرين والبصرة وهرمز وصحار[٤].

وخلال العصور الوسطى كان تجار البحرين يعملون كوسطاء في كثير من السلع بين فارس والعراق والهند ومصر، فيصدرون الخيول واللؤلؤ وأمتعة الهند إلى مصر ويستوردون من هناك السكر والثياب المصرية المشهورة آنذاك بجودتها[٥]، وحين وصل الرحالة العربي ابن بطوطة الخليج العربي بالحقبة ذاتها وهو في طريقه إلى مكة إذ عبر الخليج العربي من ميناء سيراف الشهير، وصف البحرين بقوله : "إنها مدينة فاخرة وكبيرة وبها بساتين وأشجار وجداول والماء يشترى بثمن يسير ويكفي أن تحفر الأرض بيدك لتجد الماء وفي هذا المكان حظائر النخيل كما يزرع الليمون والرمان والقطن"[٦].

ومع إطلالة القرن السادس عشر فقدت موانئ الخليج العربي ومنها جزر البحرين تجارة الشرق بسبب الاحتلال البرتغالي لها ما بين أعوام (١٤٩٨ – ١٦٥٠) التي كانت تجتمع فيه، وكانت هذه بداية العزلة والانقطاع بين موانئ الخليج العربي والموانئ العربية على البحر المتوسط، ولم يسمح البرتغاليون للتجار العرب في الخليج العربي بالخروج إلى البحر دون ترخيص منهم، وأصبح الخليج العربي سوقاً لنشاط التجار والملاحين البرتغال من قاعدتهم في جزيرة هرمز، ومنع البرتغاليون تصدير الخيول من جزيرة العرب بصفة خاصة إلى الهند وذلك لإضعاف قوة الدويلات الإسلامية المحيطة بهم في هضبة الدكن من الناحية الحربية[٧].

لقد سبقت شركة الهند الشرقية الإنجليزية بقية الشركات الأوروبية بوصول سفنها لمياه الخليج العربي مطلع القرن السابع عشر، وكانت التجارة وتحقيق الأرباح هما

الهدف الأساسي للشركة الإنجليزية، فقد كان يحدوها الأمل في الحصول على جزء من ثروات الشرق وخيراته وتوفير السلع الشرقية كالتوابل والعطور والجواهر والقهوة والحرير في الأسواق الإنجليزية دون الاعتماد على بقية الشعوب الأوروبية في ذلك[٨]، ومما ساعد على تغلغل نشاطها التجاري شمال الخليج العربي هو أن الدولة العثمانية صادقت على منح الكثير من الامتيازات للدول الأوروبية بمعاهدات وفرمانات، أهمها تأثيراً على التجارة خلال القرن السادس عشر ذلك الامتياز الذي منحه العثمانيون للإنجليز عام ١٥٨٠م وأعطوا بموجبه امتيازات واسعة النطاق للتجار الإنجليز كما وافقوا على تأسيس شركة الشرق الأدنى الإنجليزية تسهيلاً لهذا الغرض، ولهذا وجد التجار الإنجليز طريقهم من حلب إلى بغداد ومن ثم إلى الخليج العربي محاولين استخدام الطريق البري إلى الهند والحصول على السلع والبضاعة الهندية عبره[٩]، فلا عجب أن تتأثر تجارة البحرين المجاورة للبصرة إيجابياً بهذا التحول الذي انعكست آثاره المباشرة على انتعاش حركة التجارة وكثرة تردد السفن على جزر البحرين .

جذبت البحرين اهتمام مسئولي شركة الهند الشرقية الهولندية منذ عام ١٦٤٠ وتعزو المصادر الهولندية هذا الاهتمام بالبحرين إلى كون الأخيرة جزيرة مأهولة بالسكان وفيها العديد من القرى ولها موارد غنية في تصدير التمور واشتهارها بمغاصات اللؤلؤ الذي تزايد الطلب عليه في أوروبا الغربية، وهو ما دفع مدراء شركة الهند الشرقية إلى توجيه اهتمامهم نحو ممارسة تجارة اللؤلؤ في الخليج العربي، ومما يعزز ذلك الاهتمام الهولندي بالبحرين إرسال كارل كونستانت مدير المؤسسة الهولندية في بندر عباس عام ١٦٤٣م كوبمان هندريك والخرت، وهو من الأعضاء البارزين في هيئة الموظفين، إلى البحرين للبحث عن إمكانيات التجارة فيها ولمعرفة أسرار تجارة اللؤلؤ ومحاولة بيع بعض المنتجات الهولندية في البحرين، وقد استطاع بيع كمية قليلة من البضائع الهولندية بأسعار معقولة لأن النفقات غير المباشرة التي كان يكلفها نقل تلك السلع عن طريق البحر من هولندا كانت كبيرة[١٠] .

وفي مقابل ذلك أكدت وثائق هولندية تمتع العتوب بالخبرة التجارية والمهارة الملاحية وامتلاكهم لأسطول بحري مؤلف من (٣٠٠) سفينة كانت تستخدم بالغوص على

اللؤلؤ منذ عام ١٧٥٦م مما شكل خلفية تاريخية طيبة في امتلاك عتوب البحرين مهارات أساسية في ميدان العمل التجاري، وورد ذلك في التقرير الذي كتب بواسطة "نيفهاوزن" مدير شركة الهند الشرقية الهولندية في خرج ومساعده "جان فان درهولست" عام ١٧٦٥ م، وقد وصفا في هذا التقرير المنطقة الساحلية للخليج العربي وسكانها ورفعا التقرير إلى "جيكوب موسيل" الحاكم العام للشركة الهولندية، ومما جاء فيه ما يلي : "وبعد الفرات —الفاو— تأتي جزيرة فيلكة على الشاطئ العربي وتقع القرين مقابل فيلكا وتسكن هذه الأماكن قبيلة العتوب العربية ولديها (٣٠٠) سفينة معظمها صغير ويستخدمونها للغوص على اللؤلؤ وهو المصدر الوحيد لمعيشتهم، والمغاصات التي يرتادونها لصيد اللؤلؤ تقع بين البحرين من جهة ورأس بردستان قرب كنكون من جهة أخرى"[١١] .

تطورت تجارة الخليج العربي في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ولعل أبرز مظاهر ذلك الانتعاش قد تجسد في قدوم التجار من مناطق الهند وشرق أفريقيا إلى مدن وموانئ الخليج العربي للاتجار مع سكانها، ومما يعزز ذلك ما أشار إليه الرحالة الدنماركي نيبور (Niebour) الذي زار المنطقة عام ١٧٦٥ بأن ركاب السفن المحملة بالبضائع المحملة من الهند كانوا تجاراً في نفس الوقت وكان يتم بيع بضائعهم بسرعة حال نزولها في الأسواق الخليجية، وأضاف يقول : "ويتجمع التجار الهنود ليبيعوا بضائعهم التي تعرض من خلال مزايدة علنية يتم بيع معظمها، أما ما تبقى فيحمل إلى المناطق الداخلية من شبه الجزيرة العربية"[١٢]، وكانت الصادرات الهندية تقابل بصادرات من تمور البصرة ولآلئ البحرين التي كانت تحملها القوافل القادمة من حلب، ومعظم هذه الصادرات تمر بمسقط وهي في طريقها إلى الهند[١٣] .

وبعد هجرة آل خليفة من الكويت إلى الزبارة حوالي ١٧٦٦م بعد انفصام تحالف العتوب، أدى ذلك إلى تعاظم دورهم التجاري والسياسي شمال الخليج العربي لنجاحهم في إقامة علاقات طيبة مع القوى القبلية المجاورة لهم وتواصل فعالياتهم التجارية عبر السياسة الحكيمة التي اتبعها عتوب البحرين، كما أن تعرُّض البصرة إلى غزو واحتلال الفرس لها في أعوام (١٧٧٥ — ١٧٧٦) بقيادة كريم خان الزندي قد أسهم في ازدهار

تجارة البحرين بسبب تمركز جزء كبير من تجارة اللؤلؤ وتجارة الهند وموانئ الخليج العربي مع البحرين وترتب على ذلك أن ازدهرت واردات البحرين المالية وانتعشت أوضاعها الاقتصادية[١٤]، فيما عاودت السفن العربية التي كانت تفد من البحرين إلى البصرة نشاطاتها وهي محملة بمختلف أنواع السلع وبخاصة اللؤلؤ الذي كان يرسَل إلى حلب واستانبـــول في السنوات التي أعقبت خروج القوات الفارسية من البصرة[١٥].

من جانب آخر أدى فتح العتوب للبحرين عام ١٧٨٣م إلى تنشيط التجارة في هذه الجزر لأن المهاجرين العرب سرعان ما أصبح لديهم أسطول تجاري وصاروا هم الذين يقومون بعمليات نقل البضائع ما بين مسقط والبصرة وغيرهما من مدن وموانئ الساحل الغربي من الخليج العربي، ولم يكن شيوخ العتوب يتقاضون رسوماً على الاستيراد في بداية الأمر وكانت مصالح التجار تلقى من جانبهم الرعاية الكاملة، وكان أهل البحرين عندئذ يسيطرون سيطرة شبه كاملة على تجارة اللؤلؤ في الخليج العربي وكانت وارداتهم من الهند - التي قدرت في ذلك الوقت بحوالي (٦٠) لاكات من الروبيات كل سنة - يدفع معظم قيمتها باللؤلؤ من سوق مسقط[١٦]، إلى جانب السياسة التي اتبعها عتوب البحرين في إرساء علاقات التعاون مع القوى المحلية المجاورة لهم بعد استقرارهم بالجزر المذكورة وهو ما أسهم في انتعاش البحرين التجاري .

شهد عقد الثمانينات من القرن الثامن عشر شراء أهالي البحرين سفناً بأحجام كبيرة من الهند ليتمكنوا بواسطتها من نقل كميات أكبر من البضائع إلى مناطق مختلفة من الخليج العربي وخارجه، وما يعزز ذلك التقرير الذي كتبه (صمويل مانيستي) و(هارفورد جونز) عام ١٧٩٠م عن تجارة بلاد العرب وفارس وورد فيه الآتي : "أن عتوب البحرين والكويت والزبارة في عهد الشيخين أحمد بن محمد بن خليفة شيخ البحرين وعبد الله بن صباح شيخ الكويت كانوا يمتلكون القوارب العديدة الكبيرة، وأنهم احتكروا قسماً كبيراً من التجارة القائمة بين مسقط والبصرة"[١٧] . ويذكر الدكتور عبد الأمير محمد أمين قيمة صادرات لآلئ البحرين التي تم تصديرها إلى الهند خلال القرن الثامن عشر بـ (٥٠٠) ألف روبية[١٨]، الأمر الذي ترك آثاره الإيجابية على نشاط شركة

الهند الشرقية الإنجليزية التي أصبح الميزان التجاري في منطقة الخليج العربي لصالحها بعد ضعف المنافسة الفرنسية عقب اندحار فرنسا أمام بريطانيا عام ١٧٦٠م، وصارت المناطق المطلة على الخليج العربي من الأسواق الرئيسية للشركة وأخذت العملات الذهبيـــة تخرج من مناطق الخليج العـــربي دون قيـــود بما فيها اللؤلؤ[١٩]، ومما يؤكد ما ذهبنا إليه ما ذكره مايلز بأن أغنى أحواض صيد اللؤلؤ هي التي تقع بالقرب من جزر البحرين التي تعبئ سنوياً (٢٥٠٠) مركب لهذه العمليات[٢٠] .

وعلى الرغم من تعرض البحرين لأخطار خارجية في العقود الأولى من القرن التاسع عشر وهو ما أسهم في تراجع مركز الأخيرة التجاري، إلا أن المصادر التاريخية أوردت إحصائيات عن صادرات البحرين ووارداتها في منتصف العقد الثاني من القرن المذكور مع البلدان والمناطق الأخرى، مما يشير إلى احتفاظ البحرين بوظيفتها التجارية التي وثقتها تلك المعلومات، والجدول الآتي يبين صادرات البحرين والموانئ المصدر لها خلال عام ١٨٢٤م بالريال النمساوي (الكراون الجرماني) .

جدول (١)

جدول تقديري يبين صادرات البحرين والموانئ المصدر لها خلال عام ١٨٢٤م[٢١]

السلع	الموانئ المصدر إليها	القيمة بالريال النمساوي (الكراون الجرماني)
لآلئ	الهند	١,٢٠٠,٠٠٠
لآلئ	الجزيرة العربية – تركيا والبصرة	٣٠٠,٠٠٠
لآلئ	فارس	١,٠٠٠
بلح مجفف	الهند والسند	١٥,٠٠٠
بلح مجفف	فـــارس	١,٢٠٠
قماش القنب البحريني	الهند	٣,٠٠٠
قماش القنب البحريني	البصرة	٥,٠٠٠
قماش القنب البحريني	الكويت	٥,٠٠٠
قماش القنب البحريني	فـــارس	٣,٠٠٠
الحصران	فـــارس	١,٢٠٠
الحصران	البصرة	١,٢٠٠
الحصران	الكويت	٨٠٠
زعاف سمك القرش	الهند	٢,٠٠٠
ذبـــل	الهند	٣,٥٠٠
عصار البلح (الدبس)	فـــارس	٢,٠٠٠
الخام الملون	البصرة	١,٠٠٠
نثريات	مناطق مختلفة	٥,٠٠٠
	المجموع	١,٦٤٨,٩٠٠

يتضح من الجدول رقم (١) أن صادرات البحرين كانت تعتمد اعتماداً اساسياً على تصدير اللؤلؤ حيث بلغ مجموع ما صُدِّر من لآلئ البحرين إلى مناطق مختلفة خلال عام ١٨٢٤ حوالي (١,٦٠٠,٠٠٠) ريال نمساوي (ما يساوي ٣٢٠,٠٠٠ جنيه استرليني) ويشكل هذا الرقم حوالي (٩٧,٣٪) من مجموع الصادرات، ويلي اللؤلؤ البلح بـ (١٦,٢٠٠) ريال (٠,٩٨٪) ثم القنب البحريني بـ (١٦,٠٠٠) ريال (٠,٩٧٪) ويشكل حجم السلع الأخرى حوالي (١,٠٢٪) من مجموع الصادرات[٢٢] .

جدول رقم (٢)

جدول تقديري لواردات البحرين خلال عام ١٨٢٤م والموانئ المستوردة منها[٢٣]

السلع	الموانئ المستورد منها	القيمة بالريال النمساوي
أرز	مانجلور (الهند)	٦٠,٠٠٠
أرز	البنغال (الهند)	٢٤,٠٠٠
سكر	الهند	١٢,٠٠٠
قصب السكر	الهند	٥,٠٠٠
توابل	الهند	١٠,٠٠٠
سبائك اللحام	الهند	٢,٠٠٠
حديد	الهند	١٠,٠٠٠
قصدير	الهند	٢,٤٠٠
فولاذ	الهند	١,٠٠٠
أخشاب	الهند	١٧,٠٠٠
ألياف جوز الهند	الهند	٥,٠٠٠
أقمشة	الهند	١٠٠,٠٠٠
قرفة	الهند	٦٠٠
بهارات أخرى	الهند	٤,٠٠٠
مسك	الهند	٢,٠٠٠
أصباغ	الهند	٥,٠٠٠
كركم	الهند	٤,٥٠٠
كافور	الهند	٤,٠٠٠
خشب الصندل	الهند	٢,٠٠٠
مخدرات مختلفة	الهند	٥,٠٠٠

السلع	الموانئ المستورد منها	القيمة بالريال النمساوي
تمر الهند	الهند	٢,٠٠٠
نثريات	الهند	١,٨٠٠
قهوة	البحر الأحمر ومسقط	٩٣,٠٠٠
فاكهة مجففة وحبوب وبعض صادرات الهند	مسقط والساحل الفارسي	٢٠٠,٠٠٠
بلح وحبوب	البصرة	٢٠٠,٠٠٠
نثريات	مناطق مختلفة عدا الهند	٣٠,٠٠٠

ويوضح الجدول رقم (٢) حجم واردات البحرين خلال نفس الفترة المذكورة وأهم الموانئ المصدرة لهذه السلع حيث يتبين أن صادرات الهند تمثل حوالي (٣٥,٢١٪) من مجموع الواردات ثم تأتي البصرة بحوالي (٢٤,٧٧٪) وفارس بأقل من (٢٤,٧٧٪) والبحر الأحمر ومسقط بأكثر من (١١,٥١٪) ومناطق مختلفة بحوالي (٣,٧١٪) . ومن الجدير بالذكر أن معظم واردات البصرة وفارس كان يعاد تصديرها إلى الهند[٢٤] .

استمرت تجارة اللؤلؤ تحتل المقدمة في صادرات البحرين في عقد الثلاثينيات من القرن التاسع عشر، وأشارت المصادر التاريخية إلى أن عدد سفن الغوص على اللؤلؤ كانت عام ١٨٣٣ (١٥٠٠) سفينة، وعلى ظهر كل سفينة ما يقرب من (٦٠) شخصاً يجمعون ما تزيد قيمته عن (٣٥) مليون روبية[٢٥] فيما ظلت الهند تعد السوق الرئيسية لتجارة اللؤلؤ التي ازدهرت تجارتها وهي تعتمد على اللؤلؤ المستخرج من أعماق الخليج العربي حتى أن بعض تجارها كانوا يسافرون إلى بومباي أو يرسلون بضاعتهم إليها، وهناك يتم تصنيف اللؤلؤ وإعداده للتصدير إلى الأسواق الأوروبية، وكانت أجزاء منه ترسل إلى بغداد وخاصة اللآلئ البيضاء، أما اللآلئ الصفراء فلها سوق رائجة في الهند الأمر الذي انعكس إيجابياً على تزايد أعداد السفن العاملة في الغوص على اللؤلؤ، وقد دفع هذا الانتعاش الاقتصادي بسلطات حكومة بومباي إلى فرض المزيد من الرسوم

والضرائب الجمركية على السفن البحرينية مما اضطر الشيخ محمد بن خليفة شيخ البحرين عام ١٨٤٣م إلى تقديم شكوى إلى بروس (Bruce) المقيم البريطاني في الخليج العربي، منتقداً تلك الإجراءات التي ألحقت الضرر بالاقتصاد البحريني وهدد بأنه ما لم يتم التوقف عن فرض تلك الرسوم المالية فإنه سيجد نفسه مضطراً لأن يضع نفسه تحت حماية الدولة العثمانية[٢٦] .

واعتباراً من النصف الثاني من القرن التاسع عشر استعادت تجارة البحرين دورها الملحوظ كاملاً مع استقرار أوضاعها الداخلية وزوال الأخطار الخارجية المهددة لها والتي استغرقت سنوات عدة من النصف الأول من القرن المذكور، وقد أشارت المصادر الروسية لعام ١٨٥٣م أن أحسن أنواع اللؤلؤ هي التي تستخرج من جزر البحرين . وتساهم في موسم الصيد حوالي (٤٥٠٠) سفينة والذي يبدأ في شهر حزيران حتى نهاية تشرين الأول، ويبلغ معدل الناتج السنوي حوالي (١٢,٥٠٠,٠٠٠) فرنك . يقع القسم الأكبر من ناتج اللؤلؤ بيد المرابين الهنود ويشحن من ميناء لنجة إلى بومباي[٢٧]، وهناك يتولى التجار بيع اللآلئ المختلفة الأنواع والأحجام في المدن الهندية بمبالغ عالية جداً، حتى صار الإقبال عليها شديداً من قِبَل المهراجات (الأمراء الهنود) الذين كانوا يدفعون فيها مبالغ خيالية، كما تزايدت أعداد السفن العاملة بالغوص على اللؤلؤ كما أورد ذلك الرحالة البريطاني بلجريف (Palgrave) عام ١٨٦٢م بقوله أنها لا تقل عن (٢٠٠٠ — ٢٥٠٠) سفينة[٢٨]، وحسب تقرير الكولونيل بيلي (Pelly) المقيم البريطاني في الخليج العربي والمؤرخ عام ١٨٦٣م فقد قدرت إيرادات الساحل العربي من اللؤلؤ في ذلك العام بـ (٤) ملايين دولار حصة البحرين منها (٣,٥) مليون دولار[٢٩] .

وبسبب الهيمنة البريطانية على الخليج العربي أواخر القرن التاسع عشر وما تركته من تأثير مباشر أدى ذلك إلى تبدل شامل في العلاقات الاقتصادية السائدة في المنطقة، وتمثل ذلك بظهور نوع من التخصص السلعي هناك، إذ استندت الحياة الاقتصادية في الخليج العربي على تجارة اللؤلؤ التي ظلت هي الغالبة على باقي أنواع التجارة[٣٠]، كما كان سكان داخل شبه الجزيرة العربية يأتون إلى البحرين وهم يحتاجون البضائع الهندية

كالعقاقير ومواد الملابس والتوابل[31] وهو ما انعكست آثاره الإيجابية على ازدهار تجارة البحرين، وقد أسهم ذلك بدوره في ظهور مراكز تجارية على الساحل الشرقي من الخليج العربي، فقد كان لنجة يعد الميناء الثاني على الساحل الشرقي بعد ميناء بندر عباس لكنه لا يملك أي اتصال مع المناطق الداخلية لبلاد فارس لوجود الهضاب العالية والصحاري الخالية من الماء التي تفصله عن داخل بلاد فارس وتجعله قليل الانتعاش، لكنه تحول إلى مركز للتجارة الهندية والأوروبية التي تنقل بعد ذلك إلى البحرين ومسقط وبقية الموانئ العربية الأخرى[32].

من جانب آخر ظلت البحرين محتفظة بثقلها التجاري وسمعتها المحلية والعالمية في الحقبة ذاتها، فقد عرفت كمحطة تجارية تشتهر ببيع الخيول العربية التي تجلب من المناطق الداخلية من شبه الجزيرة العربية وفي المنامة عند باب البحرين كانت توجد مخازن هندية كبرى تقدم كل ما يباع من بضائع مختلفة[33]، وهكذا أصبحت البحرين نهاية القرن التاسع عشر أكبر مركز تجاري في منطقة الخليج العربي وصار حجم تجارتها يشكل حوالي (٤٥,٧٪) من مجموع حجم التجارة في موانئ الخليج العربي المختلفة، وأشارت المصادر التاريخية إلى أن موانئ البحرين باتت تدار خلال هذه الفترة من قِبَل الهنود المقيمين في البلاد مقابل دفع مبالغ معينة للاحتفاظ بهذا الامتياز، وكونت صادرات الهند حوالي (٣٥,٢١٪) من مجموع الواردات كما قدرت ذات المصادر أن حوالي (٤٧,٢٠٪) من مجموع الصادرات البحرينية كان يصدر إلى الهند[34].

يتبين لنا من العرض السابق كيف تميز تاريخ البحرين الحديث الذي وثقته مفردات البحث وموضوعاته بتواصل الأنشطة التجارية المختلفة لسكان البحرين على الرغم من المخاطر الإقليمية والدولية التي تعرضت لها جزر البحرين، والدور الذي أداه العتوب في عمليات التبادل التجاري في عموم مناطق الخليج العربي والجهود التي بذلوها بهدف الحفاظ على قوافلهم التجارية وسلامة رحلاتهم البحرية المتجهة إلى المناطق الداخلية من شبه الجزيرة العربية أو تلك التي تتعامل مع مدن وموانئ الخليج العربي المختلفة، وقد تمكنوا من إقامة علاقات طيبة مع القوى القبلية المجاورة لهم والبلدان

الخارجية أساسها الثقة وتحقيق المنافع المتبادلة لكل الأطراف، ثم اتسع دور البحرين التجاري بعد فتح العتوب لجزر البحرين وتخليصها من السيطرة الأجنبية عام ١٧٨٣م، فضلاً عن ذلك فإن نجاح البحرينيين في صناعة السفن اللازمة لإدامة وظيفتهم التجارية وهو ما عُدَّ تلبية لحاجة ملحة أملتها عليهم ظروف وتطورات عملهم التجاري، الأمر الذي زاد من قوة أسطولهم البحري وقدرتهم على نقل وتبادل البضائع مع جهات عدة داخل الخليج العربي وخارجه، كما ازدادت عائداتهم المالية جراء إفادتهم من وجود أكبر مغاص على اللؤلؤ على سواحل بلا دهم واستمرار الطلب عليه من الأسواق العالمية، وهو ما ضاعف من حجم تجارة البحرين التي احتلت مكان الصدارة من صادرات الخليج العربي ووارداته خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر من خلال ما أورده البحث من الإحصائيات التي ضمتها الجداول المرفقة والتي عززت حقائق البحث واستنتاجاته .

الدكتور صبري فالح الحمدي

الجامعة المستنصرية – بغداد

الهوامش

١ - كاظم باقر علي، البحرية الفارسية في الخليج العــربي . دراسة لواقعها البحري ١٨٤٨ - ١٩٠٧م، مركز دراسات الخليج العربي بجامعة البصرة، ١٩٨٢، ص٧٠ .

٢ - د. أحمد الشامي، العلاقات التجارية بين دول الخليج وبلدان الشرق الأقصى وأثر ذلك في بعض الجوانب الحضارية في العصور الوسطى، بحوث مؤتمر دراسات تاريخ شرق الجزيرة العربية، جـ٢، لجنة تدوين تاريخ قطر، الدوحة، اتحاد المؤرخين العرب (٢١ - ٢٨) مارس (آذار) ١٩٧٦، ص٣٣٦ .

٣ - رؤوف أفندي عيسى، مغاصات اللؤلؤ، مجلة لغة العرب، المجلد ١، جـ١٢ جمادى الآخرة ١٣٣٠/آيار ١٩١٢، ص٤٨٤ .

٤ - د. محمود علي الداود، ملامح التاريخ السياسي الحديث لمنطقة الخليج العربي، مجلة الخليج العربي، مركز دراسات الخليج العربي بجامعة البصرة، العدد٨، ١٩٧٧، ص١١ .

٥ - د. جاسم ياسين الدرويش، تجارة البحرين في ظل الإمارة العيونية، مجلة الوثيقة، العدد ٤١، السنة ٢١، البحرين، مركز الوثائق التاريخية، شوال ١٤٢٢هـ/يناير (كانون الثاني) ٢٠٠٢م، ص٤٠ .

٦ - نقلاً عن أرنولدت . ويلسون، الخليج العربي، نقله إلى العربية وقدم له د. عبد القادر يوسف، الكويت، مكتبة الأمل، ص١٦٨ .

٧ - أنظر : د. محمد مرسي عبد الله، الخلفية التاريخية لموانئ الخليج، مجلة الخليج العربي، العدد ٢٨، السنة ١١، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م ص٨ .

٨ - د. عبد الأمير محمد أمين، المصالح البريطانية في الهند خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر وأثرها في الخليج العربي، مجلة الخليج العربي، العدد ٨، ١٩٧٧، ص١٧ .

٩ - د. طارق نافع الحمداني، تجارة البصرة الخارجية ودورها في الخليج العربي خلال القرن السادس عشر، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربيــة، جامعــة الكويت، العدد ٣٤، السنة ٩، أبريل (نيسان) ١٩٨٣م/جمادى الآخرة ١٤٠٣هـ، ص ص٦٨-٦٩ .

١٠ – ب .ج . سلوت، عرب الخليج في ضوء مصادر شركة الهند الشرقية الهولندية ١٦٠٢ – ١٧٨٤ . ترجمة عايدة خوري، أبوظبي، ١٩٩٣، ص ص ٩٤ – ٩٥، ص ص١٧٥ – ١٧٦ .

١١ – عبد الله بن خالد آل خليفة، د. علي أبا حسين، من تاريخ العتوب في القرن الثامن عشر، مجلة الوثيقة، البحرين، مركز الوثائق التاريخية، العدد ٤، السنة الثانية، ربيع الآخر ١٤٠٤ هـ/يناير (كانون الثاني) ١٩٨٤م، ص ص١٦ – ١٧ .

١٢ – M.C.. Niebouhr; Travels Through Arabia and Other Countries in the east, vol. II, Edinbourgh, 1792. P.388.

١٣ – د. بدر الدين الخصوصي، دور الموانئ الخليجية في قيام المنافسات الدولية في منطقة الخليج، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، جامعة الكويت، الندوة العلمية الثانية (١٢ – ١٦) أبريل (نيسان) ١٩٨٥ ص٢٣ .

١٤ – R. Haghes, Thomas; Selections From the Records of the Bombay Government, Historical and Other Information Connected with the Province of Oman, Muscat - Bahrain, and Other places in the Arabian Gulf (New Series. No. XXIV) Bombay, 1850, PP. 363- 364.

١٥ – د. حسين أحمد القهواتي، أضواء على تجارة البصرة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، مجلة الخليج العربي، المجلد ١٢، العدد الثاني، ١٩٨٠، ص٢٣ .

١٦ – ج.ج. لوريمر، دليل الخليج، القسم التاريخي، جـ ٣، ترجمة ديوان أمير قطر، الدوحة، ١٩٧٥، ص١٢٧٤ .

١٧ – نقلاً عن د. نجاة عبد القادر القناعي، د. بدر الدين عباس الخصوصي، تاريخ صناعة السفن في الكويت وأنشطتها المختلفة، الكويت، ١٩٨٢، ص١١٩ .

١٨ – أمين، المصدر السابق، ص٢١٣ .

١٩ – د. مصطفى عبد القادر النجار، شركة الهند الشرقية، ملامحها وأبرز سماتها في الخليج العربي، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، العدد ١٥، السنة ٤، ١٩٧٨م/رجب ١٣٩٨ هـ، ص١٠٥ .

٢٠ – س.ب. مايلز، الخليج ... بلدانه وقبائله، ترجمة محمد أمين عبد الله، سلطنة عمان، وزارة التراث القومي والثقافة، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، ص ص٣٤٣ – ٣٤٤ .

٢١ – نقلاً عن خالد خليفة الخليفة، تجارة البحرين منذ فتح العتوب وحتى ظهور النفط، مجلة الوثيقة، العدد ٧، السنة ٤، شوال ١٤٠٥هـ/يوليو (تموز) ١٩٨٥م ص٣٦ .

٢٢ – أنظر الخليفة، المصدر السابق، ص٣٧ .

٢٣ – المصدر نفسه، ص٣٨ .

٢٤ – الخليفة، المصدر السابق، ص٣٩ .

٢٥ – قدري قلعجي، الخليج العربي، بيروت، دار الكاتب العربي، ١٩٦٥، ص٦٥٤ .

٢٦ – محمد جابر الأنصاري، لمحات من الخليج العربي، ١٩٧٠، ص٦٥؛

Thomas, OP. Cit. P. 418.

٢٧ – أداموف، التجارة الدولية في الخليج العربي خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ترجمة د. نوري عبد البخيت، مجلة الخليج العربي، العدد ٩، ١٩٧٨، ص١١٧ .

٢٨ – W.G. Pelgreve ; Narrative of a Year Journey Through Central and Eastern Arabian (1862-1863) vol. II, London, 1865. P.214.

٢٩ – J.A. Saldanha ; Precis Of Correspondence Regarding the Affairs of the (Gulf), vol. II, (1834-1871) Calcutta, 1906 (Reprented in 1986) P. 122 .

٣٠ – د. خلدون النقيب، المجتمع والدولة في الخليج والجزيرة العربية، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٩، ص ص٩٠-٩١ .

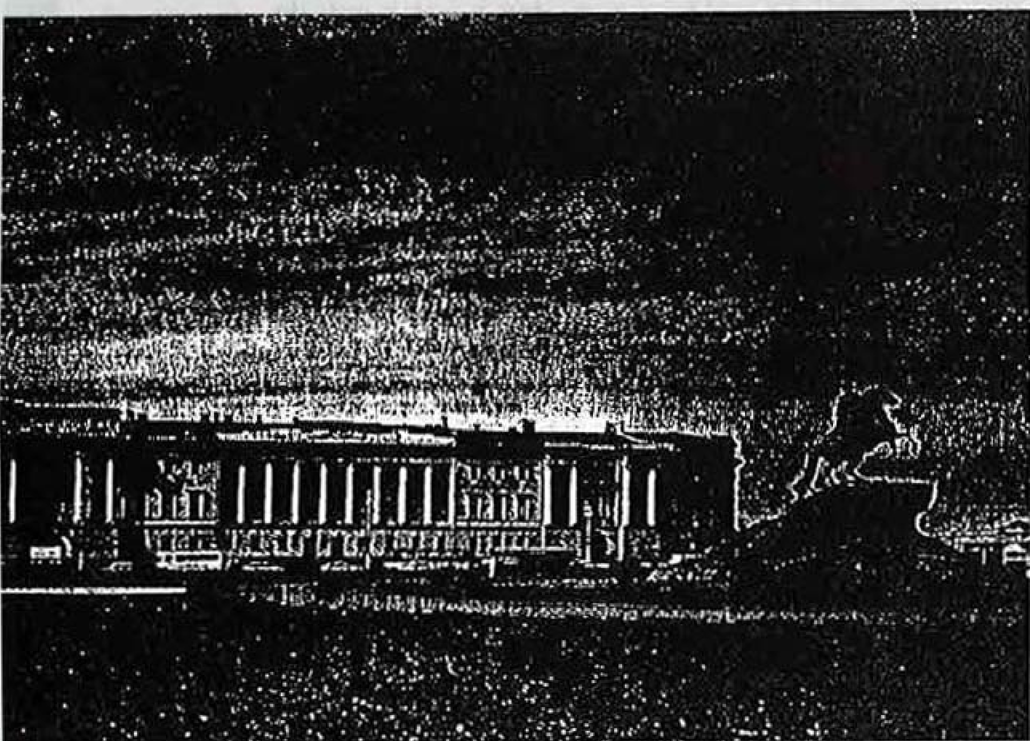
٣١ – Andrew, Crichon ; History of Arabia and its people, London and Edinburah, 1852, P. 526.

٣٢ – أنظر اداموف، المصدر السابق، ص١١٤ .

٣٣ – Fereydun, Adamiyat ; Bahrain Islands, Alegal Diplomatic Study of Iranian Controversy, the British, New York, 1935, p. 3.

٣٤ – لمزيد من التفاصيل أنظر الخليفة، المصدر السابق، ص ص٣٢-٣٧ .

شبه الجزيرة العربية والخليج من خلال



بقلم البروفيسور نيكولاي إن. دياكوف

(بداية القرن العشرين)

إن العام الأخير للقرن العشرين دون شك يمثل فترة مناسبة مثمرة لاستعراض الميول الرئيسية في التفاعل الدولي في أنحاء العالم المختلفة .

وعشية القرن الواحد والعشرين قد يكون من المهم إلقاء الضوء على بعض الوثائق من مقتنيات الأرشيفات الرئيسية في سان بطرسبرج عاصمة روسيا سابقاً . والتي لعبت دورا رياديا في سياستها الإمبريالية بعيدا عن حدودها وعلى طرق بعيدة عنها وعلى تقاطعات الطرق شرقاً وغرباً . وإلقاء الضوء على الصحف والمجلات التي يرجع تاريخها إلى بداية القرن العشرين .

"ذي نيو تايمز" التي كانت صحيفة محترمة وشائعة بين الناس في ذلك الوقت، كتبت تلخيصاً للشئون الدولية للقرن الماضي، بأن القرن التاسع عشر لم يغير خريطة أوروبا فحسب بل غيّر خريطة العالم كله . وأثر في الحياة السياسية والاقتصادية في كافة المجتمعات والقارات في كل مكان . وبعد إنشاء قناة السويس في ١٨٦٩م انكمشت المسافات بين أوروبا والشرق بما فيه الهند وبلدان الشرق الأقصى . (ذي نيو تايمز - ١ يناير ١٩٠١م العدد ٨٩٢٥) .

الوثيقة ٦٣.

إن وجهة النظر هذه، أي التركيز على أهمية أوروبا كمحور التطورات، كانت مقبولة في تلك الأيام رغم أنها قابلة للنقد الشديد في هذه الأيام . وعلى كل، فهذا التحليل لصحيفة روسية رائدة يعكس أصلاً مدى تطور آسيا وأفريقيا في القرن التاسع عشر إلى درجة الاندفاع إلى الحلبة السياسية والاقتصادية الدولية .

وأما بخصوص روسيا وسياستها نحو جيرانها في الشرق والجنوب، يجب علينا الاعتراف بأن هذا القرن العابر تميز بالتفاعل والتعاون منذ البداية بين روسيا ممثلة حضارة عميقة وواسعة في شمال القارة الأوروبية الآسيوية من جهة، والعالم العربي من جهة أخرى ممثلة مساحة واسعة للثقافات والتقاليد العريقة، وموطناً للأديان الرئيسية العالمية بما فيها الإسلام . وانتشرت تأثيرات هذه التقاليد عبر كافة القارات ووصلت إلى أقاليم روسيا قبل أكثر من ألف سنة .

وأصبح هذا القرن لروسيا والعرب على السواء مشهداً للتغييرات التاريخية في حياتهما السياسية والاجتماعية والثقافية . ومن البديهي اليوم بأن هذا القرن كان للعرب مرحلة ذات أهمية متزايدة من حيث السياسة الطبيعية والحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية .

وإذا أردنا الوصول إلى رؤية موضوعية متوازنة عن النمو الاجتماعي والسياسي والاقتصادي الذي شهدته الجزيرة العربية والدول الخليجية على عتبة التحول من القرن التاسع عشر إلى القرن العشرين فلابد من مراجعة مصادر متنوعة ومنها التقارير الرسمية وشهود عيان وملاحظات الدبلوماسيين الروس والصحفيين وشهود متخصصين وضباط البحرية والعلماء الخ ... .

لقد شهد القرن التاسع عشر انتشاراً ملحوظاً للاستعمار الأوروبي عبر مساحات واسعة في آسيا وأفريقيا . وأدى هذا التوسع الاستعماري بدوره إلى وفرة المعلومات واختراق جدار الرأي العام الغربي عندما شرع العلماء الأوروبيون البارزون في أبحاث منتظمة في الحضارات والدراسات الشرقية .

وأن نخبة من العلماء الروس نالت شهرة عالمية في الدراسات العربية والإسلامية . ومنهم (دورن) و (فران) و (سنكووسكي) و (بريزن) و(جريجوريف) و (بارتولد) وغيرهم .

وكان إنجازهم في أبحاث الحضارة الإسلامية العربية رائعاً ومتنوعاً وعميقاً . وعالجت هذه الأبحاث موضوع الحضارة العربية الإسلامية في كافة مراحلها، من نشأتها إلى ملامحها البارزة في تطورها في القرن التاسع عشر .

وبتوسعة الاستعمار في بداية القرن العشرين كانت هناك حاجة لمعلومات وبيانات أكثر ولتحاليل مستحدثة عن الأوضاع السائدة في العتبة الجنوبية للإمبراطورية الروسية .

وكان هذا وراء جمع حجم كبير من التقارير للقناصل وقباطنة السفن والتحاليل العلمية والتوصيفية والبحوث والمقالات ذات الصلة بالحياة السياسية والاجتماعية لشعوب الشرق الأوسط وأنشطة القوى المتنافسة في تلك المنطقة . وتراكمت هذه الوثائق في أرشيفات المعاهد الرسمية المختلفة . ونشر معظمها في الدوريات الرئيسية للعاصمة الروسية في ذلك الحين، سان بطرسبرج .

ويستند هذا البحث إلى بعض المصادر المنتخبة بما فيها الوثائق الموجودة في الأرشيفات المركزية أي (الأرشيفات التاريخية الرسمية الروسية) والأرشيفات الرسمية للقوات البحرية الروسية، والدوريات الرئيسية للعاصمة ومنها الصحيفة "ذي نيو تايمز" مع ملحقها "الأسبوعية الملونة" و "ملخصات سان بطرسبرج" .

وسبق لكاتب هذا المقال معالجة الجوانب المختلفة لهذه الأبحاث ولو جزئياً في الندوة الدولية التي عقدت في المنامة في يناير عام ١٩٩٧م حول (العلاقات التاريخية بين روسيا ودول مجلس التعاون الخليجي) وكذلك في المؤتمر الدولي المنعقد في الرياض في يناير ١٩٩٩م حول (المملكة العربية السعودية : مائة عام) .

وفي هذا البحث الجديد يواصل الباحث معالجة الاتصالات المبدئية في مجالات السياسة والاقتصاد والثقافة بين روسـيا ودول شبه الجزيرة العربية في بداية القرن العشرين . ويتناول أسس التعامل بين روســيا والدول العربية الخليجية وجوانبها الدولية .

ولقد أدت السنوات الأولى في القرن العشرين إلى زرع بذور التنمية المستقلة في معظم الدول الإسلامية بما فيها دول الجزيرة العربية . وكانت هذه العملية متزامنة مع النشاطات الاستعمارية للدول الغربية بما فيها روسيا . لذلك يركز هذا البحث على

الأحداث الرئيسية التي اجتاحت الوطن العربي الواسع وانعكاساتها على روسيا . وتكون الأحداث ذات صبغة محلية وإقليمية على السواء . وأتناول أولاً الأحداث المحلية التي اجتذبت انتباه المراقبين الروس آنئذ .

ورغم اهتمام الإمبراطورية الروسية المستمر بالشئون العربية لم تنشئ صلات رسمية منتظمة بينها وبين سكان وحكام الجزيرة العربية حتى نهاية القرن التاسع عشر . وكان عدد المسلمين في روسيا في عام ١٨٩٧م ٩٪ من المجموع وهو ١٢٧ مليون نسمة .

ولاحظ بارتولد وهو عالم باهر ومتخصص في التاريخ الإسلامي لاحظ في عام ١٩٢٥م بأنه حتى نهاية القرن التاسع عشر لم ترسل روسيا أية بعثات أو حملات إلى المناطق الشرقية أو الداخلية للجزيرة العربية .

غير أن التوغل الألماني في الشرق الأوسط والتقدم في تنفيذ مشروع سكة حديد بغداد في الحدود الشمالية للجزيرة العربية أديا إلى تصعيد التوتر الدولي في السواحل العربية، وأقنعا روسيا بضرورة اتخاذ خطوات لتعزيز مواقعها في المنطقة، مستخدمة الوسائل السياسية والاقتصادية المختلفة، والقيام بدور أكثر واقعية في المنافسة للسيطرة على الطرق التجارية الدولية حول الجزيرة العربية .

وحتى أواخر القرن التاسع عشر، كانت المصادر الرئيسية للمعلومات عن الشئون العربية لدى الحكومة الروسية تقتصر على التقارير الدبلوماسية من القناصل والضباط من الأقاليم المجاورة للإمبراطورية العثمانية وإيران، والتقارير من الجهات الرسمية للخارجية والزوار العاديين .

وعلى كل، كانت في متناول يد الوزارات في سان بطرسبرج عامة معلومات كافية عن الخليج والجزيرة العربية، وهي المطلوبة لتسيير السياسات الخارجية والتجارة في المنطقة .

ومن الروس الذين شاهدوا الأوضاع السياسية والاجتماعية السائدة في الدول العربية الخليجية، أولاً بأول، كانوا القباطنة وقادة السفن الحربية والتجارية التي ترددت السواحل العربية في العقد الأخير للقرن التاسع عشر . وجدير بالذكر بأن أول زيارة غير منظمة لباخرة روسية "نزنى نوفوجورود" لميناء مسقط كانت في سبتمبر ١٨٩٣م . بعد

حوالي ست سنوات، أي في فبراير – مارس ١٨٩٩م، قامت السفينة الحربية "غلياك" بزيارة كل من بندر عباس وبوشهر ومحمرة والبصرة والكويت .

مصدر مهم آخر عن الأحداث الجارية داخل الجزيرة العربية وحولها ذات الأبعاد الدولية، كان "تقارير الوكلاء السياسيين والعسكريين" وتقارير الممثلين الذين ساهموا في التعارف والتقارب بين روسيا والدول العربية .

"عبد العزيز دولتشن" كان روسياً مسلماً شهيراً وسائحاً وضابطاً في المخابرات وأوفدته حكومته في عام ١٨٩٨م إلى الحجاز ليدرس المسائل والمشاكل التي واجهها الحجاج الروس إلى الأماكن المقدسة أثناء وجودهم في الجزيرة العربية .

وبعد عام، أي في ١٨٩٩م، نشر تقريره عن مهمته في الجزيرة العربية، في سان بطرسبرج من قِبل المقر الرئيسي للإمبراطورية الروسية . وأصبح هذا التقرير وثيقة مهمة ومعتمدة في المعلومات عن الجزيرة العربية وخلفيتها .

وسائح روسي آخر يجدر ذكره هنا هو محامٍ وصحفي ووكيل رسمي "إس. إن. سيرومياتنيكوف" الذي كان رجلاً مقبولاً في سانٍ بطرسبرج بسبب مقالاته وبحوثه ومحاضراته عن التاريخ وأنماط الحياة اليومية في البلدان المختلفة في آسيا والشرق الأوسط . في بدية عام ١٩٠٠م أوفدته حكومته ليمهد الطريق للتعاون مع الدول الخليجية مستقبلاً ويتحرى إمكانية التوغل التجاري والمالي الروسي إلى المنطقة .

وأعد سيرومياتنيكوف تقريراً كاملاً عقب عودته إلى روسيا وبعد عام، أي في نوفمبر ١٩٠١م، لأول مرة، ألقى محاضرة عن انطباعاته عن سفره إلى الخليج بحراً تحت عنوان : "أهمية الخليج والكويت الدولية" أمام أعضاء "جمعية أنصار المعلومات العسكرية" في سان بطرسبرج .

وفي الحقيقة تناولت تلك المحاضرة النقاط الرئيسية التي تضمنها كتابه "صور من الخليج" الذي صدر في سان بطرسبرج في ١٩٠٧م .

وقدم سيرومياتنيكوف في بداية محاضرته أمام جمعية المعلومات العسكرية في سان بطرسبرج وصفاً عاماً للوضع الجيوسياسي لمنطقة الخليج . وقال بأنه في حالة تنفيذ مشروع سكة حديد بغداد وتمديدها إلى الكويت، تزداد أهمية هذه المنطقة نظراً لأنها تقع

على تقاطع الطرق بين أوروبا والشرق . كما تزداد المؤامرات السياسية والتوتر بين القوى الأوروبية الموجودة في الخليج منذ بداية القرن العشرين .

وعرض المحاضر أمام مستمعيه مجموعة كبيرة من الخرائط التي كان قد أعدها من خلال أسفاره وجولاته الميدانية . وفي رأي الصحفي الرسمي لجمعية المعلومات العسكرية كانت تلك الخرائط مشوقة وقيّمة للغاية .

وشمل البحث معلومات جغرافية وإحصائية عن المنطقة و وصفاً مفصلاً عن خليج عمان وخط الساحل والجزر وأعماق ومساحات الخلجان والموانئ والقنوات المائية .

والبيانات المنتخبة الآتية عن بعض الموانئ العربية والمدن الساحلية والقرى التي قدمها سيرومياتنيكوف، تثير إعجاب القارئ المعاصر .

أولاً : وصف لمسقط عاصمة عمان : وهي بلد مترامي الأطراف في شرق الجزيرة العربية ومساحته أكثر من ٨١,٠٠٠ ميل مربع وعدد سكانها في العام ١٩٠٠م حوالي مليون ونصف المليون نسمة . وكان عدد السكان في مسقط حوالي ٣٠,٠٠٠ نسمة . وكان إجمالي المبيعات فيها بقيمة ٥ ملايين روبل في ١٩٠١-١٩٠٢م والواردات بقيمة ٣,٣٦٠,٠٠٠ روبل والصادرات بقيمة ١,٣٤٠,٠٠٠ روبل والإيراد من الجمرك ٢٠٠,٠٠٠ روبل .

المنامة : عاصمة البحرين وميناء وعدد سكانها أكثر من ٥٠,٠٠٠ نسمة (١٩٠١م) وإجمالي المبيعات السنوية بقيمة حوالي ٩ ملايين روبل في ١٨٩٥-١٨٩٦م وإجمالي الواردات بقيمة ٤,٢٥٨,٨٠٠ روبل والتصدير بقيمة ٤,٤٩٤,٠٠٠ روبل .

الكويت : هي ميناء هام وعاصمة وعدد سكانها حوالي ٨٠,٠٠٠ نسمة . وتبلغ التجارة الخارجية في ميناء الكويت مليوني روبل (الإيراد والتصدير متساويان) . ولها ٢٠٠ سفينة وسعتها تتراوح بين ٢٠ و٣٠٠ طن .

وذكر الباحث عدة موانئ صغيرة وقرىً أخرى واقعة على السواحل الخليجية ومنها القطيف والعقير والبدع وقطر والفاو والبصرة الخ ... وأورد بصفة عامة أهمية مواقعها من الناحية السياسية والاقتصادية والعسكرية للمنطقة كلها .

وكان جزء هام من المحاضرة عبارة عن وصف لبعض الموانئ الأخرى الواقعة على الساحل الشرقي مثل المحمرة وبندر عباس الخ ... .

وفي إحدى المحاضرات قدم الباحث مجموعة من رسومه وصناعات عربية تقليدية كالبنادق والملابس والفخار والصحون الخ ... .

تقارير القناصل :

شكلت هذه التقارير مصدراً ثرياً وموثوقاً به للمعلومات المعاصرة عن أنماط الحياة السائدة حتى في البلدان التي لم تكن على علاقات دبلوماسية مع روسيا رسمياً . ولمدة طويلة كان المصدر الوحيد للمعلومات هو القنصلية الروسية العامة في ميناء بوشهر الإيراني وهي التي زودت الحكومة في سان بطرسبرج بالتقارير المفصلة عن التطورات السياسية والعسكرية والنمو الاجتماعي والاقتصادي في الدول العربية الخليجية .

ولدى معظم الحكام العرب، في السنوات الأولى من القرن العشرين، كان القنصل العام الروسي في بوشهر "جي. في. أوفسينكو" همزة وصل بينهم وبين "قيصر الشمال" في سان بطرسبرج . وكانت صلات الصداقة الحميمة قائمة بينهم وبين هذا الدبلوماسي منذ أمد طويل . ونزل عليهم ضيفاً أثناء زيارته لعواصمهم .

وبصفته موظفاً رسمياً كان أوفسينكو أول من استعرض الجوانب المختلفة لزيارات الروس للسواحل الخليجية ومنهم السياح والتجار والملاحون والعلماء في أوائل القرن التاسع عشر .

وقدم أوفسينكو تقريراً مفصلاً شاملاً لوزارة الخارجية الروسية عن ترويج تجارة السكر الدولية في منطقة الخليج في الفترة من ١٨٩٥ إلى ١٩٠٠م .

وتناول أحد التقارير مواصفات كل ميناء رئيسي في الخليج وميزات أنشطتها التجارية الرئيسية .

وأكد أوفسينكو أن معظم الموانئ العربية الخليجية كالبصرة والكويت والمنامة ومسقط والشارقة ورأس الخيمة وأبوظبي ودبي كانت ملائمة للبواخر الحديثة الثقيلة .

وكان لكل ميناء اتصالات تجارية وخدمات خاصة به . وكانت فيه مساحات تجارية وتسويقية منتظمة وازدهرت هذه الموانئ بتبادل البضائع التجارية .

ورأى أوفسينكو أن تجارة السكر مثل السلع التجارية الأخرى كانت لها إمكانات مرموقة وهي في تزايد مستمر في المنطقة . وبلغ حجمها في ١٩٠٠م ٣,٨٣١,٧٠٧ روبل .

ثم عرض القنصل الروسي وصفاً مفصلاً مدعماً بالجداول والأشكال ليشرح الاتجاهات الرئيسية في تجارة السكر الدولية العابرة عن طريق الموانئ الرئيسية في الخليج . وذكر القنصل أنواع السكر الرائجة ومنها(أبو فنجان) و (أبو سرة) بأوزان ٢ كيلوجرام والمستوردة من فرنسا، ومسحوق السكر البلور من النمسا الخ ... وكان الاستهلاك المحلي مكوناً من هذه الأنواع من السكر .

وكان حجم تجارة السكر في الموانئ الرئيسية الخليجية للسنوات من ١٨٩٧ إلى ١٩٠٠م في مسقط ١٢١,٢١٠ روبل، و٩٨,١٧٨روبل في الموانئ العمانية الأخرى، و ٥١,٢٤٧ روبل في البحرين .

ومن مسقط يتم توزيع السكر المستورد إلى القرى والمدن في المنطقة المجاورة كلها .

والموانئ والقرى الواقعة على الشريط الساحلي الضيق الممتد من رأس مسندم إلى غرب قطر، حسب قول أوفسينكو، كانت منطقة هامة من حيث استهلاك السكر المستورد الذي جاء من ميناء بومباي على متن سفن الشركة البريطانية الإيرانية عن طريق لنجة، ومن لنجة ينقل السكر إلى عمان على ظهر القوارب المحلية .

وكانت القيمة الإجمالية للسكر المستورد من بومباي إلى الساحل العماني في عام ١٩٠٠م ٨٢,٨٠٠ روبل . ولمسقط ١١٨,٨٤٦ روبل .

وبلغت قيمة السكر المستورد إلى البحرين في ١٩٠٠م ٥٩,٧٨٦ روبل . وينقل السكر من البحرين إلى كل من قطر والموانئ الصغيرة في الاحساء، تحت إشراف الأتراك وحتى إلى الكويت .

والتعقيدات السياسية حول الكويت سببت انخفاضاً ملحوظا في إيراد السكر الذي تم تحويل نقله عن طريق الموانئ المجاورة كالبصرة والمنامة والمحمرة حسب قول

أوفسينكو . وفي هذه الفترة كانت كمية السكر المستورد إلى الكويت ٤٠٠ كيس من القطع و٢٠٠٠ كيس من الحبيبات .

ودون شك كانت فرنسا في طليعة مصدري السكر إلى الخليج في بداية القرن العشرين وبلغت صادراتها ٩٩٦,٠٢٠ روبل . وكانت الهند نقطة التجارة المرورية وقدرها ٤٥٩,٦٦٨ روبل .

ثم قام أوفسينكو بتقييم الموقف بجدية تامة بشأن إمكان تصدير السكر من روسيا إلى الخليج .

وحتى عام ١٩٠١م لم يكن يعرف أحد في الخليج عن مصدّري السكر في روسيا . وفي ذلك العام وصلت باخرة الشحن (كورنيلوف) إلى ميناء بوشهر الإيراني وعلى متنها ٩٥٠ كيساً من السكر الروسي لبيعه في إيران .

وذكر أوفسينكو مبادرة ممثل للجنة بورصة كييف "إم. سومكيفيش" في زيارته لبوشهر وهو أول روسي زار بوشهر للاطلاع على الأوضاع السائدة في أسواق السكر وتقييم إمكانية تصدير السكر الروسي إلى الخليج .

ولاحظ أوفسينكو في تقريره لسان بطرسبرج بأنه بتشغيل خطوط ملاحية جديدة من ميناء أوديسا في جنوب روسيا يمكن التغلب على معظم المشاكل التي تواجه التبادل التجاري مع الخليج . وكما ذكر آنفاً تلقي الوثيقة الضوء على حقل مهم في العلاقات التجارية بين روسيا ودول الخليج في بداية القرن العشرين . كما تشير إلى مجهودات الحكومة الروسية لتوسيع وتنويع اتصالاتها مع الخليج الذي كان يكتسب أهمية متزايدة على المستوى الدولي .

إن تقارير القنصل عالجت كافة مجالات العلاقات الخارجية للدول الخليجية وقدمت بيانات ومعلومات حديثة للهيئات الحكومية العليا عن الجوانب المختلفة للخليج منها الارتقاء السياسي والحروب والاقتصاد والتجارة والثقافة والتعليم .

ووثيقة مشوقة أخرى ضمن الطبعة الرسمية لمجموعة التقارير من القناصل الروس تعالج موضوع التربية والتعليم في الإمبراطورية العثمانية في ولاياتها العربية كالعراق وسوريا وفلسطين واليمن وطرابلس . (٤ . تقرير القنصل الروسي — أ. بترابيف)

الدوريات الروسية :

وهي مصدر ثري آخر للمعلومات عن الأوضاع الخليجية في بداية القرن العشرين لجمهور القراء على نطاق أوسع .

والمواضيع الرئيسية في السنتين الأوليين للقرن كانت على العموم متعلقة بمشروع سكة حديد بغداد وأزمة الكويت ومراحل الصراع في نجد بين السعوديين والرشيديين والتعاون الدولي المتقطع حول السواحل الخليجية .

سكة حديد بغداد :

نشر كاريكاتير نموذجي في صحيفة "ذي نيو تايمز" (٥يونيو ١٩٠١م) وفيه قطار (سكة حديد بغداد) لفيفة حول شجرة الجنة يغري أرض الميزوبوتاميا بكلمات تحته : (المغرية الجديدة في أرض الفردوس القديم) .

ونشرت فقرات قصيرة عديدة حول هذا الموضوع في صحيفة "سان بطرسبرجكية فيدوموستي" في ١٩٠٠ – ١٩٠٢م . كما نشرت تفاسير مفصلة من رئيس التحرير حول الموقف الروسي من سكة حديد بغداد . ونقلت الصحيفة إلى المستثمرين الروس قصد الحكومة التركية لبيع ٤٠٪ من الأسهم إلى فرنسا وبلجيكا و ٤٠٪ إلى أصحاب الأموال الروس والمؤسسات المالية الخارجية الأخرى التي كانت لديها خبرة طويلة في التجارة في تركيا .

وصحيفة أخرى من سان بطرسبرج (الفاينانشيال هيرالد) أعلنت أن الحكومة الروسية لم ترغب مباشرة في الاشتراك في هذا المشروع لكنها أخبرت مستثمريها عن حقهم المشروع في مساهمتهم في امتياز سكة الحديد .

"امتداداً من البوسفور عن طريق آسيا الوسطى إلى الخليج فإن السكة الحديدية هذه تتمتع بأهمية لدى عامة الناس كطريق من أوروبا إلى الهند حسبما ورد في الصحيفة ."

"أولاً، أن السكة الحديدية هذه تحمل أهمية لألمانيا لأن المشروع يجذب جزءاً كبيراً من آسيا الوسطى إلى منطقة نفوذها . ويفتح أقرب طريق إلى سوق جديدة رخيصة للحبوب الغذائية مما يمثل من جانبه تحدياً لروسيا والولايات المتحدة كمصدري الحبوب الغذائية التقليدية ."

واستطرد الباحث قائلاً : "إن المصلحتين الأساسيتين كالمذكور آنفاً لم تخدمها سكة حديد بغداد . والطريق الأقصر والطبيعي من أوروبا إلى الهند والشرق الأقصى يمر من الشرق الأوسط عن طريق أورنبرج وطشقند وكشكة، وسبق لنا أن انفقنا مبالغ ضخمة ومجهوداً كبيراً عليه ." (٧ يناير ١٩٠٢م)

الكويت :

وتعليقاً على ما ورد في الدوريات الإنجليزية والألمانية، كتبت الجرائد في سان بطرسبرج عن أهمية الكويت الجيو-سياسية وقالت بأنها تلعب دور الإسكندرية للخليج في المنطقة .

وتناسب الكويت سفناً كبيرة وتحميها من الرياح الشديدة وهي مرساة رائعة وتستوعب أسطولاً على الأقل .

"وعدد سكانها يزيد على ٢٠,٠٠٠ نسمة وهي تقع على مفترق الطرق من البصرة إلى المناطق الداخلية للجزيرة العربية . وتشكل ميناءً دولياً في الخليج ."

(جريدة "سانبطرسبرجكي فيدوموستي" ٨ فبراير ١٩٠١م)

والجرائد الرئيسية في سان بطرسبرج اهتمت اهتماماً خاصاً بالمواقف الإنجليزية تجاه تطور الأحداث في المنطقة . لأن الإنجليز، من وجهة نظرها، راقبوا التطورات في الكويت وحولها عن كثب . وكان المقيم الإنجليزي في بوشهر قد كتب لوزارة الخارجية

في لندن عن ضرورة القيام بدراسة جادة عن المناطق المختلفة خاصة نجد حسبما كتبته جريدة "فندوموستيا" (١٨ فبراير ١٩٠١م) .

وكانت نفس الجريدة تراقب التطورات في المجابهات بين الشيخ مبارك حاكم الكويت ومنافسه من نجد ابن رشيد . وكان التدخل التركي في هذا النزاع، حسب قول الجريدة، من الأسباب الرئيسية لبروز الأزمة على حدود الكويت، ونتيجة السياسة التركية الهادفة إلى إسقاط سلالة شمر . (٣١ مارس ١٩٠١م)

وأنذر مراسل الجريدة قائلاً : "إن أزمة الكويت ستصبح معقدة أكثر قريباً . وقد سمحت لبريطانيا بحرية التصرف في الحفاظ على مراقبتها على الكويت ولو من غير حق لتجنب تعقيدات أكثر ."

"إن هذه الأحداث قد تجعل الأمور أكثر تعقيداً باقتراب النزاع النهائي في المنطقة" (٢٤ ديسمبر ١٩٠١م)

مسقط :

ونشر مراسل الصحيفة في دول الخليج سلسلة من التقارير في الفترة ١٩٠١م – ١٩٠٢م عن الوضع السياسي بشكل عام والشئون الخارجية والحياة الاجتماعية الثقافية في عمان .

ومن بين المسائل السياسية في تلك الفترة كان النزاع بين سلطان سعيد فيصل، سلطان مسقط وجيرانه في صور وأشكال التدخل الخارجي فيه . وجاء وصفها في الجريدة .

وبريطانيا، في محاولة لتوطيد دعائمها في المنطقة، حسب الجرائد الروسية كثيرة التداول، شجعت ازدياد التوتر السياسي والعسكري في عمان وفي نفس الوقت قامت بالتغلغل الديني بابتعاث الأساقفة والمبشرين من الهند إلى مسقط .

وورد تقرير في الجريدة المذكورة المؤرخة في ١١ مارس ١٩٠١م عن زيارة أسقف إنجليزي من لاهور إلى مسقط وعقد أول مجلس صلاة على ظهر سفينة للقوات البحرية

البريطانية راسية في خليج مسقط . وفي وقت لاحق زار الأسقف مقبرة أمريكية في عمان تابعة للكنيسة الأمريكية الإصلاحية .

ورغم اهتمام الوكلاء الإنجليز بالوضع في عمان إلا أنه لم يكن مجدياً في معالجة الأوضاع الاجتماعية والصحية السيئة للغاية السائدة بين السكان المحليين .

وأعرب المراسل الروسي عن مخاوفه من إمكان نقل عدوى الطاعون الآسيوي من الهند إلى موانئ أوروبا وروسيا عن طريق عمان .

"لقد أدرك سلطان مسقط أهمية تنفيذ لوائح الحجر الصحي أحسن من البحارة الغربيين الذين لم يرغبوا في تعرضهم للحجر الصحي وإجراءات التطهير وحتى الفحص الطبي الروتيني ." (الجريدة)

"السيد فيصل اشتكى كثيراً من خرق الأعراف الدولية من قبل قباطنة السفن التجارية الإنجليزية . وبالنسبة إلى ضباط القوات البحرية فإنهم يعتبرون أنفسهم فوق القانون، وذهب الوكيل البريطاني في مسقط، الملازم كوكس لحد تقديم نصيحة للسلطان ليلزم الصمت بهذا الشأن" (٤ فبراير ١٩٠١م) .

وجاء ذكر حدث آخر من مراسل الجريدة "ذي نيو تايمز" ذي صلة بالعلاقات الروسية الخليجية :

ذات يوم في ديسمبر عصراً وصلت سفينة جديدة روسية ذات ٤ مداخن وحاملة الذخائر واسمها "فارياغ" إلى خليج مسقط في طريقها من عدن إلى الصين . وقائد فارياغ القبطان "بي. أو. بير" كان أول ممثل رسمي روسي يزور ميناء مسقط في بداية القرن العشرين .

وكما لاحظ زميلنا أفيم رضوان في كتابه، كان الغرض الأساسي من زيارة فارياغ إلى الموانئ الخليجية في نوفمبر – ديسمبر ١٩٠١م هو الاطلاع على الأوضاع السائدة هناك .

وكانت صحيفة "نوفوي فريميا" الجريدة الروسية الوحيدة التي تابعت زيارة فارياغ التاريخية المهمة التي تمت في جو من السرية . ولم يكن معظم ضباط فارياغ على علم بالطريق الذي كان عليها أن تسلكه .

والقبطان بير وضباطه بمرافقة نائب القنصل الفرنسي تلقوا ترحيباً حاراً من السلطان السيد فيصل بن تركي . وجاءت زيارة جوابية من السلطان بمرافقة كل من أخيه وابنه ورئيس وزرائه وبعض الموظفين الكبار . ولاحظت الجريدة بأن السلطان ومرافقيه تأثروا تأثيراً عميقاً بالطراد الروسي . وطلب السيد فيصل من كابتن بير أن ينقل "لقيصر الشمال" وافر التقدير والاحترام .

وكانت هذه الزيارة تحمل في طياتها أهمية كبيرة لنائب القنصل والضباط الفرنسيين الرسميين في مسقط، الذين أعلنوا أن فارياغ كانت رمزاً للتحالف المتزايد بين روسيا وفرنسا عسكرياً وسياسياً خاصة في منظور شعوب الدول الخليجية وحكامها .

(١٢ يناير ١٩٠٢م)

وفتحت زيارة فارياغ في ديسمبر ١٩٠١م آفاقاً جديدة لإقامة اتصالات هامة بين الممثلين الروس وحكام مسقط .

وتمت زيارة أخرى بعد عدة شهور عندما رحب السلطان السيد فيصل في يوليو ١٩٠٢م بالعالم الروسي من جامعة موسكو، الأستاذ "إن. في. بوجويا فلينسكي" . وقد أعد الأستاذ تقريراً مفصلاً عن زيارته لمسقط وأبحاثه الميدانية التي قام بها في كل من مسقط والكويت والمنامة والأماكن المهمة الأخرى في الخليج .

وتقرير مشوق آخر يتعلق بزيارة الكابتن "ساريشيف"، قائد الطراد "بورايين" الذي زار الموانئ الخليجية في يناير — مارس ١٩٠٣م .

وجاء ذكر زيارات الروس إلى الدول العربية الخليجية بالتفصيل في المطبوعات والأبحاث التي قدمها الباحثون حديثاً (راجع ٦ و٨ و١٢ الخ ...."

وإن مجموعة الوثائق والدوريات من مقتنيات الأرشيفات والمكتبات في سان بطرسبرج التي ذكرناها في هذا البحث، تلقي الضوء على بعض الاتجاهات في العلاقات بين روسيا والدول العربية الخليجية في بداية القرن العشرين .

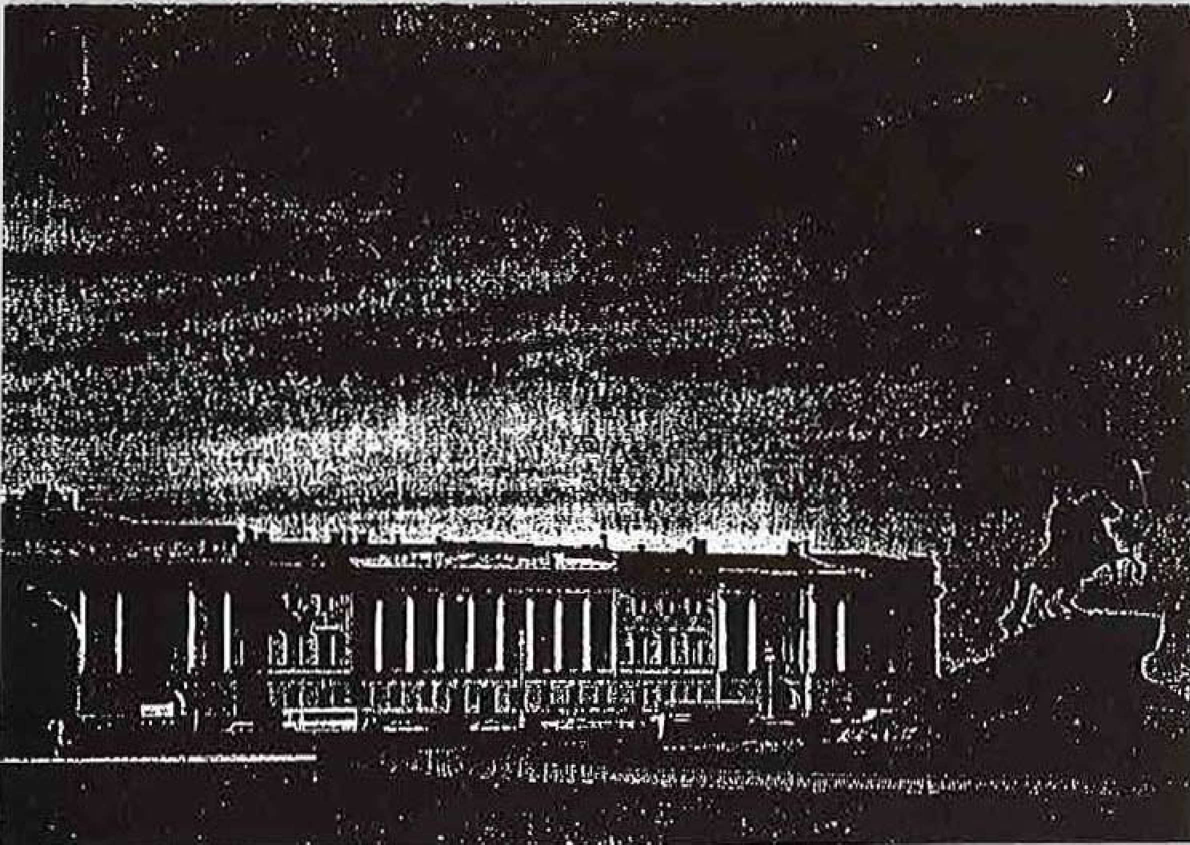
والعلاقات الثنائية التي دامت لمدة قرن وربطت منطقة ثقافية واسعة في شمال القارة الأوروبية الأسيوية من جهة وأخرى في الشرق الأوسط التي شهدت أهمية جيو سياسية متزايدة، تعرضت لنقاط التحول العديدة وبعضها واعدة .

وتحليل أدق وأعمق لنتائج هذه الصلات والاتصالات التي جرت عبر القرن الأخير، في رأينا، يكون لها مردود على التعاون بين روسيا والعالم العربي في القرن الواحد العشرين .

البروفيسور نيكولاي إن. دياكوف

رئيس قسم تاريخ الشرق الأوسط

جامعة سان بطرسبرج



مبنى الأرشيف الرسمي لجمهورية روسيا الاتحادية في سان بطرسبرج.

Selected Bibliography:

1. Bartold V. V, The History of Oriental Studies in Europe and in Russia. In: Coll. Works. Vol. IX. Moscow, 1977. (In Russian).
2. Bodyanski W.L., The Eastern Arabia. History, Geography, Population, Economy. Moscow, 1986. (In Russian).
3. Bondarewski G.L., The British Policy and International Relations in Persian Gulf (19th-Early 20th CC.) Moscow, 1968. (In Russian).
4. Dantzig B.M., The Near East in Russian Science and Literature. Moscow, 1973.
5. Davletshin A.A. A Report of Staff-Captain Davletshin on His Mission to Hejaz. St. Petersburg, 1 899.
6. Dyakov N.N. Arabia at the Turn of a New Age: Documents From the: Historical Archives of St. Petersburg. Conference on the Kingdom of Saudi Arabia: 100 Years. Ryadh. 1999.
7. Dyakov N.N. Russia and the Arab East: Problems and Prospects of a Civilization Interaction. In: Russia and the Arab World. Scientific and Cultural Relations. St. Petersburg, 1999.
8. Goriatchkine G. V. A Travel of N.V. Bogoyavlenski in the Arab States of the Gulf in 1902. Moscow, 1999. (In Russian).
9. Klemm. Report of Consul General of Russia in Bombay. 20.09.1901. S.A.R.N. File 417,1,2032. N041. (In Russian).
10. Lutskiy V.B. Modem History of the Arab Countries. Moscow, 1965. (In Russian).

11. Ovseenko G. V. A Sugar Import to the Ports of the Persian Gulf. In: «Sbornik Konsulskikh Donesenjy» («The Collectjon of Consul Reports»). Vol. I. St. Petersburg, 1903.

12. Rezvan E.A. Russian Ships in the Gulf. 1899-1903. Arab. Edition. Moscow, 1990. .English Edition. London, 1993.

13. Sarychev. Report of Commander of the 2nd Range Cruiser «Boyarin". March, 1903. S:A.R.N. File 417,1,2613. (In Russian).

14. Statistics on Import to the Ports of the Gulf. 19809-1913. R.S.H.A. F.23,11,89. P.82-306.

15. Syromyatnikov S.N. On the World-wide Significance of the Gulf and Kuwait. In: «Vestnik Obschestva Revniteley Voennykh Znaniy», N048. St. Petersburg, 15.01.1902. (In Russian).

16. Vassiliev AM History of Saudi Arabia. Moscow, 1982. (In Russian).

17. Vassiliev AM. Russia in the Middle East: From Messianism to Pragmatism. Moscow, 1993. (In Russian).

Periodicals:

1. «Novoye yremya». («The New Time»). St. Petersburg. 1900,1901.

2. «Novoye Vremya».Illustrated Supplement. St. Petersburg. 1901.

3. «Sanktpeterburgskiye Vedomosti» («The St. Petersburg Summaries»). 1900 - 1902. .

4. Sbornik konsulskikh doneseniy. (The Collection of Consul Reports). St. Petersburg. 1903.

5. Rossiya i Aziya. (Russia and Asia). Kiev, 1902-1904.

6. Vestnik Obschestva Revniteley Voennykh Znaniy. («The Herald of the Military Knowledge Association»). St. Petersburg. 1902.

7. Al-Watheekah. The Historical Documents Center of Bahrain. No. 32. July 1997.

Archives and Documentation:

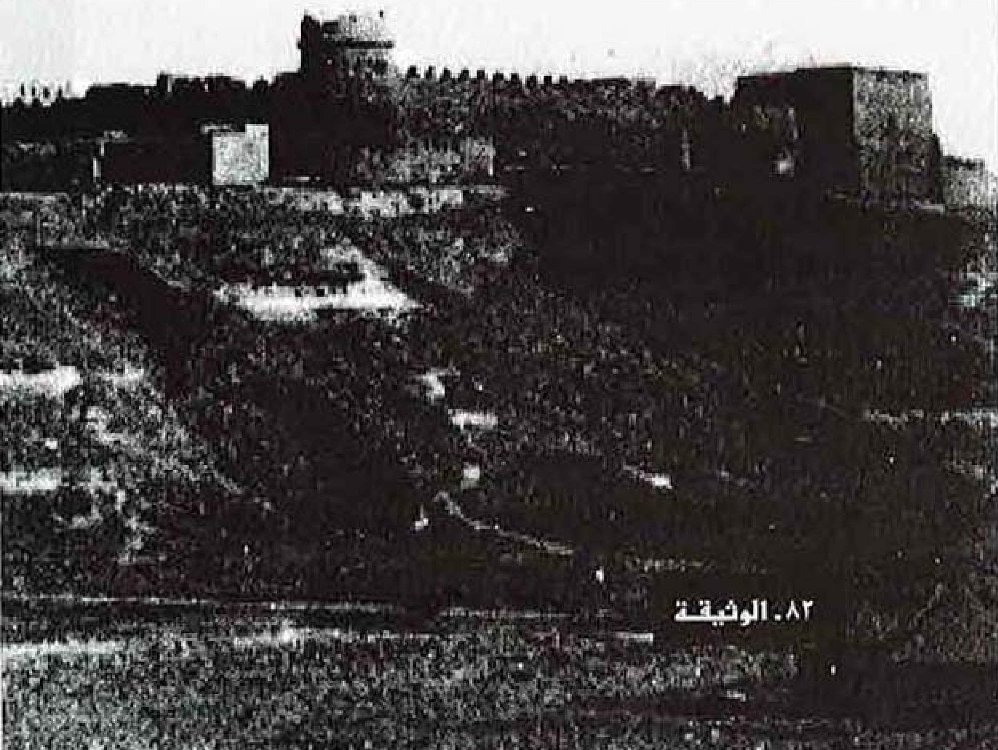
1. The State Archives of the Russian Navy (S.A.R.N.) St. Petersburg.

2. The Russian State Historical Archives (R.S.H.A.) St. Petersburg.

3. The Archives of the Russian Geographical Society (A.R.G.S.) St. Petersburg.

مقتطفات من تاريخ

بقلم : الدكتور علي عبد الرحمن أباحسين



الرفاعين وما حولهما

الرفاع : في اللغه — بفتح الراء أو كسرها : العلو . يُقال هذا أمر يرفع الرأس . أي يعطي مجدا وكرامة . ورفع : علا قدره فهو رفيع . ورفع فلانا صاحبه في المجلس : أي قدمه . ورفعه إلى السلطان : قدمه وقربه .

والرفاع موضع في البحرين كما هو موضع في نجد في الأفلاج والهدار وهو موطن العتوب . ومنها هاجروا . ويقع الرفاع في نجد على الطريق المؤدي إلى مدينة (ليلى) وهي مركز منطقة الأفلاج . وموضع آخر (البديع) في الأفلاج وتبعد عن (ليلي) بنحو ٣٢ كيلومترا نحو الجنوب . فقد اعتاد الناس إذا انتقلوا نقلوا معهم مسميات مواضعهم التي انتقلوا منها من قبيل نقل التراث والمسميات للمواضع والأشخاص تخليدا لذكرى الماضين والأماكن التي نزحوا منها .



الرفاعين وما حولهما

الرفاع : في اللغه – بفتح الراء أو كسرها : العلو . يُقال هذا أمر يرفع الرأس . أي يعطي مجدا وكرامة . ورفع : علا قدره فهو رفيع . ورفع فلانا صاحبه في المجلس : أي قدمه . ورفعه إلى السلطان : قدمه وقربه .

والرفاع موضع في البحرين كما هو موضع في نجد في الأفلاج والهدار وهو موطن العتوب . ومنها هاجروا . ويقع الرفاع في نجد على الطريق المؤدي إلى مدينة (ليلى) وهي مركز منطقة الأفلاج . وموضع آخر (البديع) في الأفلاج وتبعد عن (ليلي) بنحو ٣٢ كيلومترا نحو الجنوب . فقد اعتاد الناس إذا انتقلوا نقلوا معهم مسميات مواضعهم التي انتقلوا منها من قبيل نقل التراث والمسميات للمواضع والأشخاص تخليدا لذكرى الماضين والأماكن التي نزحوا منها .



الخلاصة : فإن الرفاع موضع في البحرين يقع في جنوب المنامة . وتبلغ مساحته ٢٩١,٦٤كم٢ وتبلغ٤١,٢٨٪ من مساحة البحرين البالغة ٧٠٩,٤٩ كم٢ . أما عدد الوحدات السكنية في الرفاع فقد بلغت :

- ٢١٢٨ في عام ١٩٦٥م
- و٢١٩٣ في عام ١٩٧١م
- و٤٥٨٣ في عام ١٩٨١م
- و٧٩٧٥ في عام ١٩٩١م

وهذه الأرقام (تقديرية) حسب ما ورد في المجموعة الإحصائية لعام ١٩٩٨م[٤].

ويمتاز الرفاع بعلوه وارتفاعه عما حوله فهو أشبه بهضبة تنحدر في وسطها مكونة ما يشبه الحوض . وقد سكنه أمراء واعيان آل خليفة حكام البحرين والموالين لهم منذ دخولهم البحرين عام ١٧٨٣م/١١٩٧هـ .

واليوم : فإن (الرفاع الغربي) مدينة حديثة فيها القصر الأميري أو (قصر الشيوخ) . وهو من بناء (الشيخ عيسى بن علي آل خليفة) ويرتفع أمامه (سارية) من الخشب نقلت من (الزبارة) بعد أن رفرف على قلعتها علم البحرين ردحا من الزمن . تلك القلعة التي بناها (الشيخ محمد بن خليفة آل خليفة) عام ١٧٦٨م وأرخت بجملة (تمت ٨٤٠ بعز ٧٩ وعون ١٣٢ الله ٦٦ حاميها ٦٥)١١٨٢هـ. ثم نقلت تلك الخشبة إلى البحرين لتحمل العلم فوق القلعة التي بناها في الرفاع الشرقي (الشيخ سلمان بن أحمد الفاتح) عام ١٨١٢م وأرخت بجملة (خيم ٦٥٠ السعد ١٦٥ بقصرك ٤١٢) ١٢٢٧هـ وفي عهد صاحب العظمة (الشيخ عيسى بن علي آل خليفة) بنى (قصر الشيوخ) في الرفاع القبلي (الغربي) وأرخ البناء (جمع ١١٣ المجد ٣٨ والشرف ٦١٧ الأثيل ٥٧٢) ١٣٤٠هـ/ ١٩٢١م . وارتفع علم البحرين تحمله هذه السارية الخشبية التي نقلت من (الزبارة) لتستقر أمام هذا القصر الذي جدد بناءه ونزل به (الشيخ حمد بن عيسى بن علي

آل خليفة) . ومنذ ذلك التاريخ وعلم البحرين يرفرف خفاقا يحكي تاريخ (آل خليفة والبحرين دارهمو) في ظل (صاحب الجلالة الملك حمد بن عيسى بن سلمان بن حمد بن عيسى بن علي بن خليفة بن سلمان بن احمد (الفاتح) بن محمد بن خليفة) أيده الله بنصره وخلد الباري مملكته بالأمن والتقدم والرخاء .

ويقابل القصر الأميري من جهة الغرب (ديوان سمو ولي العهد) الذي تم بناؤه عام ١٩٧٧م . وأطلق عليه (الزاهر) واحتضن (مركز الوثائق التاريخية) منذ نشأته في أواخر عام ١٩٧٧م . وقد زرعت الأشجار والأزهار على جانبي الطريق الرئيسية كما انتظمت المنازل الحديثة العمران .

وفي الجانب الجنوبي من الرفاع الغربي يوجد آثار قصر بناه (عبد العزيز حسن القصيبي) عام ١٩٠٤م . بناء على نصيحة طبية حيث وجب عليه أن يسكن في منطقة عالية وجافة . وقد استغرق بناؤه نحو ستة أعوام، وهو يشرف على الوادي الفسيح المؤدي إلى الرفاع الشرقي . وحين زيارة الملك عبد العزيز للبحرين عام ١٩٣٩م نزل فيه . وكذلك بعده نزل به الملك سعود . ولما توفي القصيبي اشتراه الشيخ سلمان بن حمد آل خليفة[٥] . وتشاهد (المسجد الجامع الكبير) في الرفاع الغربي وقد شيده صاحب السمو الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة ١٩٨٦م تغمده الله برحمته. فجاء المسجد روعة في الهندسة والعمران . ويسع نحو أربعة آلاف مصلٍ .

وفي الرفاع الغربي والشرقي مدارس للبنات والبنين منها مدرسة الرفاع الشرقي الإعدادية للبنين والتي أسست عام ١٩٤١م ومبناها قديم . أما مدرسة الرفاع الثانوية للبنات فقد تأسست عام ١٩٧٥م . في مبنى حديث فيها الأقسام الأدبية والعلمية . ومدرسة الرفاع الشرقي الثانوية للبنين تأسست عام ١٩٧٧م . ومدارس أخرى ابتدائية للبنين والبنات وبلغ عدد مدارس الرفاع عام ٩٨-١٩٩٩م عشرين مدرسة منها ست مدارس ابتدائية للبنين . وسبع مدارس ابتدائية للبنات . وثلاث مدارس إعدادية للبنين . ومدرستان للبنات وثانوية للبنين . وثانوية للبنات . ومكتبات عامة . ويوجد مركز

صحي في كل من الرفاع الغربي والرفاع الشرقي . وهناك في الرفاع الشرقي مركز كانو الصحي . ورعاية الأمومة والطفولة . وعيادة للأسنان وفي الرفاع الغربي المستشفى العسكري . وافتتحت (كلية الخليج الصناعية) عام ١٩٦٨م في عوالي ثم تحولت إلى مبناها الجديد في ١٩٧٠م في موقع جامعة البحرين وكان يؤمها طلبة من كافة أقطار الخليج العربي[٩] . وفي ١٩٧٨م تم إنشاء (كلية البحرين الجامعية للعلوم والآداب والتربية) . ثم تم إنشاء (جامعة البحرين) في عام ١٩٨٦م . ومقرها في الصخير والمقر الآخر في مدينة عيسى .

والرفاع الشرقي أقدم في تاريخه من الرفاع الغربي . وقد كان فيه قرية محصنة فيها (قلعة) تشرف عليها أبراج للمراقبة . وتوجد فيه عين تسمى (عين خالد) ويمكن الحصول على الماء منها على عمق نحو عشرين قامة . كما يوجد بئر (ضيف) قريبا من القرية . وتسيطر القلعة على الوادي كما تطل على العوالي . وكانت الرفاع الشرقي مقر وسكنى آل خليفة منذ عهد (الشيخ سلمان بن أحمد الفاتح) . واهتمت إدارة الآثار والتراث بصيانة القلعة . وعلى مقربة من القلعة آثار قبر (للشيخ أحمد بن محمد بن أحمد بن سلمان آل خليفة) . وبجانبه مدفع . ولذا فان سعة القلعة تمتد إلى موضع المدفع وليس حدودها الحالية . وقد بنى هذه القلعة (قلعة الرفاع) (الشيخ سلمان بن أحمد الفاتح) على أساس من قلعة (وزير الشيخ الجبري فرير بن رحال) الذي بناها في القرن الحادي عشر الهجري . كما بنى (الجبري) قلعة العمر . وبرجاً بقرب الصمان المعروف بالمنارة . وبرجاً على جبل الدخان . وقلعة الرفاع المعروفة بقلعة (فرير بن رحال) . وقلعة البومهير في البسيتين من المحرق . وكانت تتجاوب هذه القلاع حين يداهمهم العدو برفع علم على القلعة . وفي الليل يوقدون النيران في أعلاها فتستعد للدفاع . وتكثر الآثار في الرفاع وما حولها ففي موضع يسمى (المراقيب) آثار قبور دلمونيه في منطقة عالي وعلى الطريق المؤدي إلى المنامة .

وفي الجهـة الغربية من الرفاع موضع يسمى (الرفاع القبلي) أسسه (الشيخ علي بن خليفة بن سلمان بن أحمد الفاتح) وفيه (عين غريفة) .

وغربي (الرفاع القبلي) موضع يسمى (رفاع الشيخ محمد) أسسه الشيخ (أحمد الفاتح) ثم نزله حفيده (الشيخ خليفه بن سلمان) وبنى به مسجدا كانت تقام فيه الجمعة وهو باق إلى اليوم . ونواصل القول للنبهاني – ثم نزله سمو (الشيخ محمد بن خليفة) حاكم البحرين سابقا ثم نزله سمو (الشيخ محمد بن عيسى بن علي) وجدد بعض أبنيته وأسكن فيه عائلته يرأسهم نجله سمو (الشيخ راشد بن الشيخ محمد) . وفي ١٣٤٠هـ/ ١٩٢١م أمر (الشيخ راشد) ببناء قصر له حذاء قصر والده وقصر جده (الشيخ عيسى بن علي) وأرخ قصر جده بجملة (جمع المجد والشرف الأثيل) ١٣٤٠/١٩٢١م[٧] وهو ما يسمى اليوم (بقصر الشيوخ) .

لذا فإن الرفاع من المدن القديمة وأبنيتها كانت من الطين وتسقف بجذوع النخيل إلا عدداً قليلاً بني بالآجر والحجارة كالمؤسسات الحكومية . وأنشئت فيها بلدية عام ١٩٥٤م . وتتمتع الرفاع بمناخ معتدل بالنسبة لمدن البحرين فهو جاف نوعا ما في الصيف ومعتدل في الشتاء . وفيها مصنع تكرير النفط في الجنوب الشرقي من مدينة الرفاع . ثم أصبحت الرفاع من المدن العصرية الجميلة لسعة مساحتها وكثرة أشجارها واعتدال مناخها .

وعلى بعد يسير من الرفاع موضع يسمى (الصخير) ويقع جنوب غربي عوالي بمسافة نحو ميلين وفيه آثار مسجد وقصور جدَّد بناءها الشيخ حمد بن عيسى بن علي آل خليفة عام ١٣١٨هـ الموافق ١٩٠١م . وبنى قصراً له في الصخير والذي جدَّد بناءه صاحب الجلالة الملك حمد العاهل المفدى .

ويقع موضع (الصخير) على مرتفع يطل على أراض منخفضة من الغرب والجنوب تجتمع فيها الأمطار فتنمو فيها الأعشاب البرية . وتلك الرياض هي حمىً لسمو (الشيخ حمد بن عيسى بن علي) ترعاها إبله وخيله وأنعامه وفيها ثلاث عيون . ومياه هذه

العيون عذبة لبعدها عن السواحل هي (أم حصـــاة) ثم (أم الوميان) . ثم (العين الجنوبية) .

وفي الرفاع قصر الشيخ عيسى بن علي آل خليفة يتوسط قصور أنجاله فمن الجنوب قصر ابنه الشيخ حمد وهو شرقي مسجد الجمعة القديم وقد كتب على مصراعي الباب هذان البيتان وبهما تاريخ البناء :

عيسى بن علي منار البيت أطده	على المكارم والعليا له عـمد
لشبله طالع الإقبـال أرخـه	هنيت بالبيت يا در العلي حمد (١٣٠٩هـ)

وفي داخل قصر سمو الشيخ حمد يقع مجلسه العمومي وهو بديع المنظر والشكل وقد بني سنة ١٩٣١هـ لاستقبال الوفـود والضيوف ويكاد يكون أفخـر أبنية البحرين الشهيرة[٨] .

وفي رسالة من (جاسكين) مساعد المعتمد السياسي في البحرين إلى المقيم السياسي في بوشهر مؤرخة في ٢٦ فبراير ١٩٠١م قوله : أتشرف بإفادتكم بأن الشيخ حمد بن عيسى آل خليفة الذي مضى الثلاثة الأسابيع الأخيرة في الصخير بالقرب من جبل الدخان في داخل الجزيرة حيث يبنى فيه سكنا شتويا، دخل المنامة اليوم لأول مرة عقب الاعتراف به خلفاً للحاكم . وهو في طريقه إلى المحرق وزينت المدينة بالمناسبة كما تم إطلاق ٢١ طلقة من المدفع تكريما له .

وعلى بعد يسير من الصخير يقع (جبل الدخان) وهو أعلى جبل في جزيرة البحرين و أرخبيلها ويقع على بعد نحو ١٣ ميلا جنوبي مدينة المنامة ويتكون من الحجر الجيري[٩] . وسمى بجبل الدخان لأن الصورة التي تبدو للشخص وهو ينظر إلى هذا الجبل حين يكون الجو حارا مع رطوبة عالية خاصة في الصيف تبدو صورة الجبل مجرد ضباب أشبه بالدخان. وارتفاع هذا الجبل يتراوح بين ١٢٢ و ١٤٠ متراً . ويقع عند هذا الجبل مخيم فريق الحفر الأول للنفط الذي بدأ في ١٦ أكتوبر ١٩٣١م . وتدفق الزيت في غرة شهر يونيو ١٩٣٢م .

No 31 of 1901.

From

The Political Assistant
Bahrain

To

The Political Resident
in the Persian Gulf
Bushire

Bahrain, 26th February 1901.

Sir

In continuation of my letter No 32 dated inst: I have the honor to report that Sheikh Hamed bin Sheikh Isa Al Khalifah who has been away for the last three weeks at Sekhaireyeh near Jebel Dukhan in the interior of the Island, where he is building a winter residence, today entered Manamah for the first time since on his way to Moharraq, ~~and as a mark of~~ his recognition ~~respect to him~~ as the ~~nominated~~ successor of the Chief, the town was decorated and a salute of 21 guns was fired ~~at both towns~~ in his honor.

I have &c
JCG
P.A.

رسالة جاسكين إلى المقيم السياسي في بوشهر وفيها إشارة حول بناء قصر الشيخ حمد بن عيسى بن علي آل خليفة في الصخير عام ١٩٠١م

ثم مدينة (العوالي) وتعد أول مدينة مكيفة الهواء تكييفا مركزيا في البحرين . وكانت تسمى باسم (المغيدرات) لأنها مشهورة بهبات رياح عاصفة رملية مفاجئه . ويروى أن (الشيخ حمد بن عيسى بن علي) حاكم البحرين وقتئذ اصدر تعميما في ٢٣ أبريل ١٩٣٨م بتسميتها بـ (العوالي) . وتقول السيد ة (سكنر) زوجة - إدوارد) ١٩٣١م الذي كان يقود فريق الحفر على النفط : إنني أتذكر بساتين النخيل المعتنى بها . وكانت الصخير وقتئذ هي مقر إقامة الحاكم الشيخ حمد بن عيسى بن علي آل خليفة .

ويوجد مصنع غاز البحرين وقد بدأ إنتاجه عام ١٩٨٠م . ومحطة للاتصالات الفضائية ويقع خلفها جبل الدخان . ويقع مدرج المتفرجين في مضمار سباق الخيل الجديد على الطريق الأيسر المؤدي إلى مدينة الزلاق وقد افتتح في مارس ١٩٨١م[١٠] .

وفي منطقة الرفاع وماحولها عيون كثيرة منها : أربع عيون في جهة الجنوب . وتقع (روضة أحمد الفاتح) في الرفاع الغربي حيث كان يقضي فيها الربيع حين قدومه من عاصمته الزبارة وقتئذ والتي كان يقضي فيها الصيف . وفي الرفاع الشرقي (عين الحنينية) المشهورة بعذوبة مائها والتي أمر بحفرها (الشيخ سلمان بن أحمد الفاتح) الذي دام حكمه في البحرين من عام ١٧٩٥-١٨٢١م و أوقف عليها نخلا لتعميرها وجعلها سبيلا لعامة الناس . وتتكون العين من بئرين متجاورتين وعمقها يصل إلى نحو ١٧ قامة في الشتاء إحداهما تستعمل للري فقط والأخرى لمياه الشرب[١١] . وكان الناس ينقلون المياه على الجمال والحمير إلى المنامة . وسميت بالحنينية لحلاوة مائها . نسبة إلى الحنيني وهو نوع من الخبز الحلو . وعمقها نحو ثمانية أبواع . وأوقف الشيخ سلمان بن أحمد عليها نخلا لتعميرها ولإظهار الماء منها إلى بركة بحذائها ليستقى منها عامة الناس[١٢] ولسقي بعض النخيل التي زرعتها بلدية الرفاع حولها .

ومن العيون الأخرى في الرفاع أو قريبا منها :

عين أم جريع : وتقع على بعد ثلاثة أميال ونصف غربي الرفاع الغربي . وهو ينبوع تسير مياهه عن طريق الأفلاج إلى غابات نخيل كرزكان .

بئر خالد : وتقع على الهضبة المرتفعه داخل قرية الرفاع الشرقي وهي بئر عميقة يحصل منها المواطنون على مياه الشرب .

العمرو : وتقع على بعد نحو ثلاثة أميال جنوب غربي جبل الدخان . وهي بئر ذات ماء عذب .

وبئر الحفيرة : وتقع على بعد نحو ٣ أميال ونصف جنوب شرقي جبل الدخان وهي بئر ذات مياه عذبة .

سبيه : على بعد نحو ميلين ونصف شرق الرفاع الشرقي وهو ينبوع ومجرى مياه تحت الأرض يرويان مزارع عدة للنخيل .

سافا : على بعد نحو ثلاثة أميال شمال شرقي الرفاع الشرقي على الساحل الشرقي .

صافره : على بعد نحو ميلين جنوب غرب الرفاع الشرقي وهي بئر تقع في روضة تشبه المروج . وبجوارها آثار منازل متهدمة .

شبافة : على بعد نحو ٣ أميال شرق الرفاع الشرقي وهو ينبوع . وتوجد حوله حدائق نخيل النويدرات .

ساب عين الخضراء : يجري هذا الماء من عين تسمى عين الخضراء ويصب في خور مقطع توبلي ويمر من ردم الكوري، والعين تقع شمالي قرية عالي وماؤها به رائحة كبريت .

أبوالعوسج : عين يطلق عليها (أبوالعوسي) : وتقع جنوبي قلاع العمر مباشرة وهو على بعد ٧ أميال من جبل الدخان تقريبا .

الأبُيِّض : (بالتصغير ويطلق عليه خطأ (بيداء) : وهو رأس صخرة بيضاء شمال العمر ويسمى أوبيض أي تصغير أبيض . ويدعى (أوبيض العمر) وشمالية (أوبيض الصخير) .

البحير : الموقع شمالي شرقي الرفاع ويطلق عليه خطأ (البهاير) وهو : منخفض تنزل إليه مياه الأمطار في الشتاء وتتجمع على شكل بحيرة . وكذلك سمي البحير تصغير بحر وهما اثنان : البحير الكبير والبحير الصغير .

قرين الضبان : الضبان جمع ضب وهو حيوان معروف يوجد في صحراء البحرين بكثرة وقرين الضبان كان به برج لحراسة الحدود ثم تهدم .

غزال : لا أعرف مكاناً في هذا الموقع بهذا الاسم وإنما يسمى هورة ثلاب وهناك عين تسمى عين السيد يجري ماؤها إلى نخيل الهمله .

الهربديه : يطلق عليه خطأ (حربادیه) : اسم نخل بالقرب من الرقعة .

قرن إبراهيم : غربي الرميثة تل مرتفع بنى عليه الشيخ حمد بن عيسى بن علي جداراً للظل حيث كان يجلس في ظله وهو مطل على جميع الأراضي التي حوله .

حليتان : جنوبي الوسمية كان به نبع ماء ترد عليه الظباء للشرب .

الجيله : لم أعرف الموقع ويبعد خمسة اميال شمال جبل الدخان معناه شمالي العوالي وحسب التقريب يمكن أن يكون جبل سافره بالقرب من مركز الشرطة في سافره حيث يوجد نبع في البحر كانت تستقي منه سفن الغوص في الماضي ويغطيه البحر والذي يريد أن يأخذ منه الماء يغوص بالقربة ويملؤها .

القارة الشمالية (يطلق عليها خطأ القعرة الشمالية) : شمال جبل الدخان .

القارة الجنوبية (يطلق عليها خطأ القعرة الجنوبية) : جنوب جبل الدخان .

عين القار : جنوبي القارة الجنوبية وغربي حفيرة بحوالي ميلين .

رفه : ويطلق عليها خطأ روفى : وهي الأرض المنبسطة جنوبي سافره وشمالي غربي العوالي على بعد ميلين .

ضلع رفه : ويطلق عليه خطأ روفاح : وهي أرض صخرية مرتفعة بين رفه المشار إليها ودار كليب .

جبل الرمامين : قمتان لهضبتين صخريتين ورأساهما مكور على شكل رمانة أو كرة شمالي جبل الدخان .

عين يوسف : أو عين البوسميط ويطلق عليها خطأ عين سفا : على بعد ميل شمال غربي عسكر .

عين شول : ويطلق عليها خطا (عين الشول) : اسم لِعَين تقع غربي الرفاع وهي مندفنة والمنخفض جنوب غربي الرفاع الشرقي يسمى روضة عين شول وتقع شمالي طريق العوالي ستره .

أم جدر العمر : ويطلق عليها خطأ (أم حد) : روضة بها عين وكانت محاطة بجدار . وموقعها شمالي العمر بحوالي ميل وجنوب غربي جبل الدخان بميلين .

أم جدر الصمان : ويطلق عليها أم يادر : وتقع على بعد ميلين جنوب شرقي الرميثة .

العقيله : ويطلق عليه خطأ (عين عقله) : جنوبي المطلة وجنوب غربي الرميثة بحوالي ميلين(١٣) .

وقعة الحنينية

حدثت في الرفاع الشرقي بين جيش (الشيخ عبد الله بن أحمد آل خليفة) وجيش (الشيخ علي بن خليفة بن سلمان آل خليفة) وأسفر القتال عن انتصار جيش (الشيخ علي بن خليفة) فتقدم إلى (الرفاع) واستولى عليها .

وذلك في ١٢٥٨هـ/١٨٤٢م وممن قتل في هذه المعركة (الشيخ محمد بن أحمد بن سلمان آل خليفة) وتسمى هذه الحادثة (وقعة الحنينية) نسبة إلى الماء الذي وقعت بقربه(١٤) .

وقعة المقطع

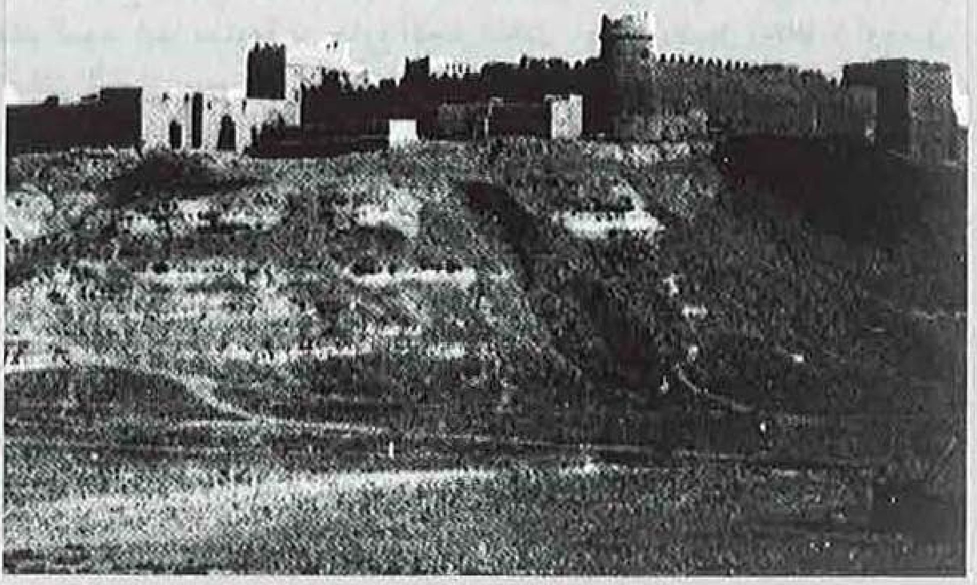
وهي من الوقائع التي حدثت في منطقة الرفاع بين (الشيخ محمد بن خليفة) وبني هاجر مع (الشيخ ناصر بن مبارك آل عبد الله) فخرج لهم (الشيخ علي بن خليفة) بجيش عظيم ومعه بقية آل عبد الله وقتل في المعركة (الشيخ علي بن خليفة) وابنه (الشيخ إبراهيم) كما قتل من الجانب الآخر عدد منهم . وأرخت بقولهم (وي لأوال خربت) في ٢١ جمادى الثانية ١٢٨٦هـ/١٨٦٩م . وهذه الحادثة وقعت بالرفاع حيث قبر (الشيخ علي بن خليفة) وابنه (الشيخ إبراهيم بن علي) في حديقة صغيرة تقع قرب بوكواره من الرفاع الشرقي[١٥] .

قلعة الرفاع

تعد قلعة الرفاع من القلاع التاريخية الهامة في البحرين حيث تتميز بموقعها الاستراتيجي الهام . وتقع على الطرف الغربي لمدينة الرفاع الشرقي . على جرف يسيطر على منطقة الحنينية وما جاورها . حيث توجد عيون ماء الشرب . وقد شيدها (الشيخ سلمان بن أحمد آل خليفة) الذي تولى الحكم بعد وفاة أبيه (الشيخ أحمد الفاتح) عام ١٢٠٩هـ/١٧٩٥م إذ بناها على بقايا أنقاض قلعة قديمة كانت قد شيدت في زمن الجبري . وذلك بعد أن اختصرها وجعلها أصغر من البناء الأول كما قام الشيخ سلمان بحفر بئر غربي القلعة وهي المعروفة ببئر (الحنينية) . وقد نقش على أحد مصراعي باب القلعة : (قل لسلمان يؤرخ) وعلى المصراع الآخر : (خيم السعد بقصرك) وفي عجز بيت الشعر هذا تاريخ بناء القلعة وهو عام ١٢٢٧هـ الموافق ١٨١٢م . أو (جاء خير بقصرك) كما شهدت الغرفة المطلة على البرج الشمالي الشرقي ميلاد الشيخ عيسى بن علي آل خليفة سنة ١٨٤٨م . ووصلت القلعة – والقول للنبهاني عام ١٣٢٣هـ الموافق ١٩٠٥م فرأيت ذينك التاريخين المذكورين منقورين على مصراعي باب القلعة بوضوح تام[١٦] .

وشيدت قلعة الرفاع كمبنى دفاعي وعسكري بحت على مساحة تربو على ٢٥٠٠م٢ وعلى شكل مربع . إذ بنيت في موقع استراتيجي يطل على عين الحنينية ويسيطر على منطقة واسعة من الرفاعين من جهة . وعلى الطريق المؤدي إلى (الصخير والمراقيب وعوالي) من جهة أخرى وإلى المنامة فهي تطل بأبراجها على هذه الجهات وما فيها من زواغيل للرمي وممرات تصل بين من سكنها . وعندما استتب الأمن في البلاد تحولت القلعة بعدئذ إلى مبنى سكني . حيث تم تقسيمها إلى ثلاثة أفنية تحيط بها الغرف والمخازن وغرف المنافع كالتمر والمؤونة والعتاد وتتمتع جميعها بالاستقلالية إلا أنها منفتحة على بعضها البعض بواسطة بعض الأبواب التي يمكن التحكم فيها وقت الحاجة . وتعتبر هذه القلعة نموذجاً لنمط البناء البحريني التقليدي ونموذجاً مماثلاً لبناء القلاع الإسلامية التي بنيت في فترة القرن التاسع عشر وهو نظام الذراع الهاشمي وذلك بإقامة برج في كل زاويتين متقابلتين للمبنى . وقد بنيت القلعة على أرض صخرية باستخدام المواد الأولية كالحصى البري والطين والنورة والجص، وسقفت غرفها بجذوع النخيل والدنجل والبامبو والمنقرور وغطى السقف بطبقة سميكة من الطين، وقد تم زخرفة بعض حوائط الغرف بالزخرفة التقليدية والنقوش الجصية، ويبلغ عدد غرف القلعة ٣٥ غرفة لمختلف الوظائف المعيشية . وقد تعرضت القلعة إلى حروب وفتن داخليه مرت بالبحرين فاندثرت جوانب منها .

وفي سنة ١٩٨٧م تم وضع دراسة لترميم قلعة الرفاع وقد عثر الدكتور علي أباحسين مدير مركز الوثائق التاريخية في البحرين على صورة تعود لعام ١٨٧٠م لقلعة البحرين وأخرى لقلعة الرفاع من محفوظات الأرشيف البريطاني في (مكتبة دائرة الهند بلندن) وقد كان لهذه الصورة مع تقرير (فرانسيس لوخ) الذي كتبه عام ١٨٢٠م مما ساعد إدارة الآثار في البحرين على ترميم القلعة بعد معرفة معالمها التي اندثرت قبل نحو قرنين من الزمن[١٧] . وبدأ العمل في ترميمها في يناير ١٩٨٩م واستمرت حتى ديسمبر ١٩٩٣م حيث افتتحها صاحب السمو الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة تغمده الله برحمته .



آثار قلعة الرفاع صورت عام ١٨٧٠م (الصورة من الأرشيف البريطاني بلندن)

وهـذه مقتطفات من مذكرة الكابتن (فرانسيس لوخ) قائد السفينة الحربية الإنجليزية "إيـدن" في الخليج أثناء عملياتها ضد القراصنة . لقد كتب في يناير عام ١٨٢٠م . حين توجـه (لـوخ) ويـرافقه في الجولة الكابتن (بروس) المقيم البريطاني في بوشهر وبعض ضباط القوات الـبحرية ، إلى الـرفاع لـزيارة الشيخ سلمان بن أحمد الفاتح وأخاه الشيخ عبد الله فقال :

إن موقـع ووضـع مديـنة (المنامة) أفضـل بكـثير مما رأيت في الخليج بالرغم من أن معظم البيوت فيها مصنوعة من جذوع أشجار النخيل . وتمتاز بتنسيق ونظافة لا توجد في الأمـاكن الأخرى. ويبدو أن السكان هم من طبقة عليا . وأن الحقول خارج المدينة مزروعة تمامـا وفيها صفوف من أشجار النخيل المتقاطعة وتوجد في المنطقة الداخلية حدائق نخيل واسعة بصـورة منتظمة . ولكـن الأمـر الـذي جـذب انـتباهي هو تواجد محصول البرسيم (الجـت) الجميل بكـثرة في هـذا الشـهر مـن العـام الـذي تأكله المواشي . وتنتج المواشي أحسن أنواع اللحم والحليب والزبدة ما أكلنا مثلها منذ أن تركنا إنجلترا .

ثم توجه لوخ إلى الرفاع وجاء بالوصف التالى عنه :

توجـد في وسط الجزيرة أرض مرتفعة وبني عليها قصر الشيخ وحوله مدينة واسعة . إن جدران القصر ترتفع إلى بين ١٥و٢٠ قدما وعرضها في القاعدة يتراوح بين ١٠ أقـدام و ١٢ قدماً وهي بشكل مربع ذي برج دائرى في كل زاوية .

وتوجـد مـتاريس حـول الجـدران والأبـراج وفـيها حلقات لوضع البنادق . ولم تزرع الأرض حـول القلعـة . وهي منحدرة من كافة الأطراف ماعدا في الرأس حيث توجد قطعة "مسطحة واسعة" . لاقينا الشيخ عند باب القلعة وفيها حوالي ٢٠٠ حارس وهم يلبسون اللباس الأبيض وكـان لـدى كـل واحد منهم بندقية وسيف وكيس للخرطوش مصنوع من جلـد نـاعم . وكـان الشيخ جالسا على مقعد حجري عند الباب . وبعد تناولنا القهوة قام الشيخ ودعانـا لأن نتبعه وأمـر ألا يـأتي أحد إلا أخـوه (عـبد الله) . اقـتادنا الشيخ أنا وبـروس حـول زاويـة مـن زوايـا القلعـة شمالا على الأرض المرتفعة حتى وصلنا إلى مدخل كهـف مـنحوت في أحد الصخور فدخلناه . لم نعرف إلى أين كنا نتجه أنا وبروس . وكان

الممر في الصخر منخفضا ولم نستطع المشي واقفين حتى نزل شبه الظلام حولنا . سرنا حتى وصلنا إلى غرفة واسعة في الصخر مصنوعة من حجر رملي وهنا جلس الشيخ . (ثم دار حوار طويل بينهم حول القراصنة)

ومن المؤسسات العلمية والصحية الأخرى في الرفاعين :

مركز البحرين للدراسات والبحوث

ويقع في منطقة عوالي وهو مؤسسة علمية حكومية . أسس عام ١٩٨١م ويتولى رسم خطط وسياسات المركز مجلس أمناء برئاسة سمو ولي العهد . ويقوم المركز بدعم البحوث ومساعدة الباحثين في المجالات العلمية والتقنية . والدراسات الاقتصادية المحلية والمقارنة . والقيام بالبحوث والدراسات المتعلقة بالتقنية ويحرص على توطيد أواصر التعاون العلمي مع المراكز البحثية المشابهة .

محمية العرين

تقع في الصخير وقد أسست لتكون مأوى صالحا لمعيشة الحيوانات البرية . وبناء على توجيهات جلالة العاهل المفدى في هذا الشأن فقد بدأ العمل في برنامج مخطط لها منذ عام ١٩٧٩م . وتم افتتاحها للجمهور وهي من بين الأماكن الخاصة بالترويح . كما أصبحت محمية العرين وسيلة تعليمية يتعرف من خلالها التلاميذ على الحيوانات معرفة مباشرة إلى جانب الكتب المدرسية .

المستشفى العسكري

يقع في الرفاع الغربي على يسار الطريق المؤدي إلى مدينة حمد وقد بدأ التفكير في المشروع عام ١٩٧٥م واستمرت دراسته فترة من الوقت بحث خلالها المنتفعون به وأفضل

الأماكن لإقامته . في يوليو ١٩٧٦م تم توقيع عقد إنشاء المستشفى مع شركة (إيبس أوف بحرين) .

وفي ٥ فبراير ١٩٧٧م وضع سمو الشيخ حمد بن عيسى آل خليفة ولي العهد القائد العام وقتئذ حجر الأساس في حفل كبير . تكلف بناء المستشفى الذي تصل مساحته إلى مليون وثلاثمائة قدم مربع ستة ملايين دينار في مرحلته الأولى والتأسيسية، يضاف إليها تكاليف مشروعات التوسع التي تمت مؤخرا ويحتوى على ٢٠٠ سرير ويضم أحدث وسائل العلاج والتجهيزات الطبية . يبلغ عدد العاملين به نحو ٥٥ طبيبا وعدد وفير من أعضاء هيئة التمريض اللاتي تم تجنيدهن وأصبحن يحملن رتبا عسكرية، بالإضافة إلى الفنيين والمستخدمين والحرفيين .

وقد تم في عام ١٩٨٤م إجراء العديد من مشروعات التوسع في الأجنحة وفي أقسام المستشفى الرئيسية مثل افتتاح عيادة الأخصائيين التي يعمل بها عدد من الأطباء الأكفاء الاستشاريين في مختلف التخصصات كذلك في قطاع المختبرات وتزويدها بأحدث الأجهزة، هذا وتكرس قيادة الخدمات الطبية بقوة الدفاع جهودها لخدمة جميع العسكريين وكافة منتسبي قوة الدفاع والشرطة والأمن العام وتمتد مظلة الرعاية الطبية والعلاج إلى عائلاتهم وإلى جميع المدنيين الراغبين في مراجعة أطباء المستشفى والعلاج الخاص بها .

ومما هو جدير بالذكر أن أنشطة الخدمات الطبية تمتد إلى مجالات أخرى مثل رعاية اللياقة الطبية والصحة العامة والقيمة الغذائية لوجبات الجنود والتأكد من تنقية المياه ونظافة المعسكرات ومكافحة الأوبئة ومسبباتها واستقبال حالات الطوارئ وإصابات الحوادث التي تقع في البلاد . وتم مؤخرا افتتاح ٣ أجنحة جديدة هامة بالمستشفى العسكري .. وهي عبارة عن : جناح النقاهة، وجناح العناية القصوى، وجناح العناية بأمراض القلب، وقد بدأت تؤدى خدمات متطورة للمرضى وفقا لأرقى المستويات .

ويعتبر جناح النقاهة من أحدث الأجنحة تصميما وتنسيقا وينقسم إلى قسم للرجال ويحتوى على ١٦ سريراً وآخر للنساء وبه ١٢ سريراً وهو يستقبل مرضى الجراحة والباطنة ممن يتماثلون للشفاء وفي دور النقاهة بحيث يمكن الاعتماد على أنفسهم في تناول الطعام والاستحمام . ويتم تحويل المرضى من الجنسين من الأجنحة العامة بعد أن يقرر الطبيب المعالج ذلك، ويشرف على هذا الجناح ممرضات بحرينيات مدربات على ذلك .

أما جناح العناية القصوى فيتكون من حجرتين خاصتين كل حجرة بها سرير على حدة وكذلك يوجد سريران في القسم العام ويحتوى هذا الجناح على أحدث الأجهزة المتطورة تقنيا وبه ممرضات مدربات ومتخصصات في رعاية مرضى الحالات التالية : هبوط القلب — أمراض الكلى — حالات الصدمات — إتمام العمليات الكبرى وضيق التنفس الشديد .

وبالنسبة لجناح العناية بأمراض القلب فإنه يعتبر من أحدث الأجنحة في البحرين ويتكون من أربع غرف كل بها سرير على حدة وهو مجهز بأحدث الأجهزة المتطورة لفحص وعلاج مرضى القلب .

عيادات الاخصائيين

وتشمل أقسام الجراحة، الأطفال، الأنف والأذن والحنجرة، الأمراض الباطنة، أمراض النساء، الأمراض النفسية والعصبية .

والعيادات الخارجية

يعمل بها فريق من الأطباء المارسين الذين يتولون الفحص المبدئي للمرضى وتشخيص حالاتهم وعلاجهم وتحويل الحالات التي تتطلب مزيدا من الدقة في العلاج

والتشخيص إلى الأخصائيين كما تضم هــذه العيادات عيادة خاصة لـرعاية الطفولة والأمومة .

وعيادة الأسنان ومختبر تركيباتها

لقد تم إجراء توسعات عديدة في عيادة الأسنان شملت عيادتين للعلاج ووحدة لأشعة الأسنان ومختبرا لتركيباتها ، وقد زودت بأحدث الأجهزة والمعدات المتقدمة ، وقد أصبح مختبر الأسنان بالمستشفى العسكري أول مختبر حكومي في البلاد يحتوى على أدق الوسائل والمواد والمعدات اللازمة لصناعة الأسنان .

وغرفة الحالات اليومية

ويضم غـرفة للعمليات وقسما فرعيا خاصا للمرضى به ستة أسرة وقد ألحق به فريق طبي وفريق من هيئة التمريض المدربين لاستقبال مختلف الحالات .

ومن سبل تطوير الخدمات الطبية بالمستشفى العسكري ، استحدث خلال هذا العام قسم للعلاج بالإبر الصينية وتجهيز عيادة خاصة لهذا النوع من العلاج .

وفي اليوم الرابع من شهر فبراير ١٩٧٧م وضع جلالة ملك البحرين الشيخ حمد بن عيسى آل خليفة حجر الأساس للمستشفى العسكري الجديد . وتحت رعايته تم تخريج دورة إسعاف الميدان الطبية في ١٢/ فبراير/٨١ . وجاء افتتاح الشيخ خليفة بن سلمان آل خليفة رئيس الوزراء المبنى الجديد للمستشفى العسكري ومركز محمد بن خليفة للقلب في ٣ مارس ١٩٩٢م كثمرة طيبة ومتواصلة في مضمار تأمين الخدمات الطبية كي تقوم بدورها في عمليات الإسناد الطبي على أكمل وجه خلال عمليات السلم والحرب . ثم لتدريب الأطقم الخاصة للقيام بهذا الواجب الإنساني[١٨] .

القيادة العامة لقوة دفاع البحرين في الرفاع

تأسست قوة الدفاع في مستهل شهر أغسطس ١٩٦٨م ببراءة أميريه وتبوأ صاحب الجلالة الملك حمد بن عيسى آل خليفة العاهل المفدى منصب القائد العام لقوة دفاع البحرين منذ الشروع في تأسيسها . وشمل صاحب السمو الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة برعايته الكريمة بافتتاح المبنى الجديد للقيادة العامة لقوة الدفاع في الرفاع الغربي وذلك في السادس من ديسمبر ١٩٨١م .

مركز الوثائق التاريخية

ويقع في الرفاع وتأسس في يناير ١٩٧٨م واحتضن الديوان (الزاهر) المركز واهتم المركز بجمع الوثائق التاريخية التي تلقى الضوء على تاريخ البحرين خاصة والخليج العربي والجزيرة العربية . كما قام بإصدار مجلة الوثيقة وهي دورية صدر منها (٤٥) عدداً منذ العدد الأول في يوليو ١٩٨٢م ولازالت مستمرة حتى الوقت الحاضر .

المحافظة الجنوبية

ومقرها في عوالي وتتبعها بعض مناطق الرفاع كما يتبع البعض الآخر من الرفاع المحافظة الوسطى . ففي عام ١٩٦٦م صدر مرسوم بشأن نظام المحافظات . وبموجبه قسمت مملكة البحرين آنئذ الى أربع محافظات . ثم صدر قانون عام ٢٠٠٢م بتقسيم المملكة إلى خمس محافظات هي : العاصمة – والمحرق – والشمالية – والوسطى – والجنوبية .

وهناك مؤسسات حكومية في منطقة الرفاع أو حولها مثل :

* إدارة المرور والترخيص والتي افتتحت في ديسمبر ١٩٧٩م .

* كما افتتح في عام ١٩٨٦م (استاد البحرين الوطني) .

* وفي الرفاع المجلس الأعلى للمرأة وقصر الروضة حيث تعقد فيها المحاضرات والندوات العلمية والاجتماعية والأدبية .

الدكتور علي عبد الرحمن أباحسين

الهوامش

١ – أنظر خريطة البحرين . مقياس ١ : ٥٠,٠٠٠ .

٢ – لوريمر. دليل الخليج . القسم الجغرافي . الجزء الخامس . ص١٩٣٥ .

٣ – ناصر الخيري (ت : ١٩٢٥م) قلائد النحرين في تاريخ البحرين . ص٤٣٤ . ط١ . ٢٠٠٣م . البحرين .

٤ – المجموعة الإحصائية لعام ١٩٩٩م . ص٧ . والمجموعة الإحصائية لعام ١٩٩٨م . صادر في ديسمبر ١٩٩٩م . ص٦و٢٠ .

٥ – أنجيلا كلارك . جزر البحرين ص٢٨٦,٢٨٥ .

٦ – النجمة الأسبوعية . العدد ٩ . في ١٣ مارس ١٩٧٤م . وانظر هامش المجموعة الإحصائية لعام ١٩٩٨م . ص١١٣ . وإحصاءات التعليم لعام ٩٨-١٩٩٩م . ص٢٥ .

٧ – التحفة النبهانية ص٦٥و٦٦ .

٨ – الوثيقة . العدد (٤٣) يناير ٢٠٠٣م . ص١٤١ .

٩ – لوريمر . القسم الجغرافي . الجزء الثاني . ص٦٣٣ .

١٠ – أنجيلا كلارك . جزر البحرين . ص٢٧٠-٢٨١ . البحرين ١٩٨٥م .

١١ – لوريمر . دليل الخليج . القسم الجغرافي . الجزء الأول . ص٢٩١و٢٩٢ .

١٢ – التحفة النبهانية ص٦٥ . ط٢ .

١٣ – الشيخ عبد الله بن خالد آل خليفة .

١٤ – التحفة النبهانية ص١٥٩ .

١٥ – التحفة النبهانية ص١٨٩و١٩٠ .

١٦ – ج = ٣ + آ = ١ + آ = ١ + خ = ٦٠٠ + ي = ١٠ + ر = ٢٠٠ + ب = ٢ + ق = ١٠٠= ص = ٩٠ + ر = ٢٠٠ + ك = ٢٠ المجموع = ١٢٢٧هـ وهي سنة بناء القلعة . التحفة النبهانية . ص١٠٩و١٤٠و١٤١ . ط٢ .

١٧ – القوة . العدد ٢٠٣ ص١٦-١٩ قلعة الرفاع . المهندسة خاتون الأنصاري . ص١٦-١٩.

١٨ – د. أباحسين والعقيد أحمد السويدي : قائد وقوة . ص٥٨و٥٩ . البحرين ١٩٨٧م .

المراسلات الدبلوماسية والمراسلات

من خلال الوثائق التاريخية

لإمبراطورية روسيا في مو



بدأت إمبراطورية روسيا في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين تعير اهتماماً كبيراً لدول الخليج العربي . ولذلك أرسل إلى هذه المنطقة كثير من ممثلي إمبراطورية روسيا والدبلوماسيين والمهندسين والأطباء والرحالة وغيرهم . وبدأت السفن الحربية الروسية تدخل موانئ الخليج العربي : إلى الكويت وبندر عباس وبوشهر والبصرة ومسقط، وذلك بهدف رفع نفوذ روسيا في هذه المنطقة .

وافتتحت عام ١٨٨٠م قنصلية روسية في بغداد بهدف نشر نفـوذ روسيا في هذا

الشخصية المتعلقة بمسقط

بارشيف السياسة الخارجية

ـكو لعام ١٩٠٢ – ١٩٠٥م



بقلم : الباحثة إلفيرا فاراحوفا

الجزء من الدولة العثمانية ومقاومة نشاطات بريطانيا وألمانيا في هذه المنطقة .

بعد اكتشاف مواقع النفط في منطقة الخليج العربي بدأت بريطانيا وبصورة خاصة تقوِّي تغلغلها في هذه المنطقة . وقد كانت لبريطانيا شبكة من القنصليات والوكالات في هذه المنطقة بلغت ٢٠ مفوضية .

ومنذ عام ١٨٩٩م طرح القنصل الروسي ببغداد كروجلوف أ.ف. مسألة توسيع شبكة القنصليات الروسية في منطقة الخليج[1] .

ووفقاً لوثائق أرشيف السياسة الخارجية الروسية في موسكو تدل المراسلات المتداولة في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين بين ممثلي المفوضيات وتقارير الرحالة والوكلاء الروس وكذلك تقارير قباطنة السفن الحربية الروسية على ضرورة توسيع هذه الشبكة .

وهنا قمنا بترجمة وثيقتين تتعلقان بهذا الموضوع .

الوثيقة الأولى هي رسالة العضو العامل لدى جمعية هواة علم الطبيعة وعلم الإنسان والإثنوجرافيا بمدينة موسكو والرحالة نيقولاي بوجويا فلينسكي الذي قام برحلة على سواحل الخليج العربي ومن بينها زار ميناء مسقط حيث التقى بالوكيل التجاري السيد جوجويو الفرنسي الجنسية والذي عرض له بعض المشروعات بهدف تقوية نفوذ روسيا في هذه المنطقة والتي سردها في رسالته إلى بوجويا فلينسكي وهي الوثيقة الثانية . (أنظر نسختها طبق الأصل في الملحق)

رسالة العضو العامل لدى الجمعية الإمبراطورية لهواة علم الطبيعة وعلم الإنسان والإثنوجرافيا بمدينة موسكو نيقولاي بوجويا فلينسكي إلى القنصلية العامة للإمبراطورية الروسية في الخليج العربي بمدينة بوشهر (٢)

مسقط، ١٩٠٢/٦/٢٧م

(ترجمة من اللغة الروسية)

عندما يتوجب على العالِم أن يعمل في بلد أجنبي حيث يجري الصراع السياسي الحاد الذي تشترك فيه الدولة التي ينتمي إليها هذا العالِم فغالبا ما يكون، خلال تعامله مع الناس، مضطراً لسماع مشروعات موجهة إلى تحقيق الأهداف السياسية التي تؤدي إلى تقوية موقف بعض الدول أو إلحاق الضرر بدول أخرى .

وقد وجدت نفسي في مثل هذه الحالة بمسقط حيث أبدى لي الوكيل التجاري الفرنسي الجنسية التابع للشركة الروسية للملاحة والتجارة السيد جوجويو (A.Goguyer) كثيراً من المشروعات المختلفة وطلب مني أن أسلمها للقنصلية العامة للإمبراطورية الروسية في بوشهر .

وبما أن القنصلية سوف تهتم بكل الاقتراحات التي تتولد في ذهن الأشخاص الذين يعملون في الخليج العربي فقد قررت إبلاغ القنصلية خلاصة كل هذه الاقتراحات التي كتبها السيد جوجويو بنفسه ولم يرسلها شخصياً بعد لسببين :

١ – أنه لا يريد أن يرسل هذه الاقتراحات بالبريد بل يسلمها شخصياً بيد الشخص الموثوق به .

٢ – أنه ليست له اتصالات بالقنصلية العامة للإمبراطورية الروسية . والآن انتهز السيد جوجويو الفرصة وسلمني هذه الاقتراحات لتسليمها بيد الشخص الموثوق به في القنصلية . ولأن السيد جوجويو هو متخصص بتاريخ جزيرة العرب واللغة العربية فقد احتل هذا الشخص مكانة مهمة داخل الأوساط العربية وبين أوساط المتخصصين بعلوم اللغة العربية فقررت بالرغم من عدم وجود صلاحية لي أن أرسل إلى القنصلية العامة للإمبراطورية الروسية خلاصة مشروعات السيد جوجويو .

/إمضاء/

رسالة الوكيل التجاري الفرنسي الجنسية التابع للشركة الروسية للملاحة والتجارة السيد جوجويو (A. Goguyer) إلى العضو العامل لدى الجمعية الإمبراطورية لهواة علم الطبيعة وعلم الإنسان والإثنوجرافيا بمدينة موسكو السيد نيقولاي بوجويا فلينسكي[٣]

مسقط، ١٩٠٢/٧/٨م

(ترجمة من اللغة الفرنسية)

إنني متأكد من أن الحكومة الفرنسية في منطقة الخليج العربي تمارس سياسة سلبية وتدل على ذلك بعض الدلائل ومنها :

١ – تعيين وكيل مُلاّك في القنصلية الفرنسية ببغداد في منصب نائب القنصل ببوشهر ومسقط بعد أن تركا منصبيهما في بغداد بسبب عدم القناعة بعملهما .

٢ – تساهلات دائمة للإنجليز .

٣ – ممارسات استفزازية مثيرة للسخرية من قِبل السفن الحربية الفرنسية .

٤ – أعمال استفزازية ضد الفرنسيين من قِبل سلطان مسقط .

٥ – خوفاً من الإنجليز فإن نائب القنصل الفرنسي لا يجرؤ على تزويد السفن العسكرية الروسية بالفحم الحجري .

٦ – موقف سلبي لنائب القنصل الفرنسي بالنسبة إلى مشروعي المتعلق بإقامة مستودع خاص للفحم الحجري الذي حظي بالمصادقة عليه من قبل لجنة آسيا الفرنسية .

وعلاوة على ذلك توجد عندي بعض المعلومات الأخرى من مصادر مختلفة غير أنني لا أستطيع أن أستخدمها في البحث الحالي لسريتها .

إن السبب الذي دعاني لأن أتناول هذه المسألة، أي دور الحكومة الفرنسية في هذه المنطقة ينبع من اهتمام فرنسا بالصراع السياسي بين الأحزاب المختلفة فقط، أما وزارة الخارجية الفرنسية فهدفها يتلخص في إبقاء الوضع على ما هو عليه وعدم القيام بأي شيء .

وبالرغم من الخلافات السياسية داخل فرنسا، فهي تتمسك برأي موحد وفقاً لأمرين هامين وهما :

١ – من الضروري أن تتسع حدود فرنسا الخارجية .

٢ – من المهم أن تتحالف فرنسا وروسيا معاً .

وإذا ما أخذتم اقتراحاتي على محمل الجد فسأحاول أن أبلغكم عنها باختصار .

يجب على موظفي دولة الإمبراطورية الروسية بالذات الذين ليس لهم صراع سياسي دائم خلافا عن زملائهم الفرنسيين أن يلعبوا دوراً سياسياً خارجياً نشيطاً في منطقة الخليج العربي . ولهذا فإن موظفي فرنسا مولعون بمجرى الأمور الداخلية أكثر من ممارسة السياسة الخارجية الصحيحة حسب رأيي . فإن السياسة الخارجية الصحيحة في المنطقة المشار إليها يجب عليها أن تأخذ بعين الاعتبار أمرين هامين وهما :

١ — على فرنسا أن تؤمِّن التفوق المعنوي لها بفضل التنوير في البلدان العربية .

٢ — على روسيا أن تتكفل بتأييد البلدان الإسلامية التي تنتشر فيها المسيحية الأرثوذوكسية أيضاً وبالذات أن تؤمِّن لنفسها نفوذاً أسرع تطوراً في هذه البلدان .

وعلاوة على ذلك قد تتفق فرنسا وروسيا بسهولة على إقامة خطة الحدود في مناطق النفوذ ابتداءً من التقاء دجلة بالفرات وحتى مضيق هرمز .

وأما وسائل ممارسة مثل هذه السياسة فوفقاً لمعلوماتي :

١ — يجب على فرنسا أن تلبي رغبة الأمراء السعوديين الذين طلبوا من الفرنسيين تحقيقها منذ ثلاث سنوات، إذ أنهم مضطرون إلى تأييد ضروري لإعادة سيطرة آل سعود إذ أنه قد يلحق ضرراً بالإنجليز في مصر والأتراك في بلاد ما بين النهرين وسوريا .

وكذلك من المهم أن تلفت فرنسا الأنظار إلى نوايا سلاطين الإمارات العربية الصغيرة وخاصة في عمان .

٢ — يجب على روسيا أن تسيطر بصورة سرية على جزء من جزر البحرين وأن يرسم ذلك على الخريطة وكذلك على منطقة جوادر في بلوخستان البريطاني الذي يملكها سلطان مسقط .

وسأبحث كلا المشروعين بالتفصيل .

وقد قَدِمَت عشيرة بني عتبة إلى البحرين منذ ١٢٠ سنة خلال فترة احتلالها وكان وقتئذ السكان الأصليون يعانون من تردي الأوضاع في شتى الميادين وربما لذلك أصبح السكان الأصليون في البحرين بالمقارنة مع إمارات عربية صغيرة أخرى يخدمون الهنود أكثر وتستخدمهم بريطانيا وتتكفل بحمايتهم ضد اعتداءات السكان الأصليين وفقاً لمعاهدة عام ١٨٨٠م، يجب أن تكون البحرين تحت الرعاية الدولية . ولكن سرعان ما توتر الوضع حتى وصل الأمر في العام الماضي إلى أن يضطر الأمير الحاكم أن يعلن ابنه الأكبر ولياً للعهد بعد موافقة الحكومة البريطانية على ذلك وفي الوقت نفسه إنني على علم أن أمراء بني عتبة هم في الحقيقة خصوم الإنجليز .

وفي هذه الحالة أود أن أقترح ما يلي :

١ — زيادة عدد العائلات ذات الأصل الفارسي التي ستكون تحت رعاية الإمبراطورية الروسية لأن كل الأوروبيين قد وجدوا أنفسهم تحت رعاية القنصلية الإنجليزية . فعندما يكون في هذه المنطقة تزايد في أتباع روسيا من الممكن أن نوجه عنايتنا بإعادة النظر بلا شك في معاهدة عام ١٨٨٠م بعد موافقة الأمراء .

٢ — إنشاء محطة نقل روسية في المنامة وبالذات منح الرعاية للوكالة التي ستعمل هناك (ويوجد لدي مرشح لهذا المنصب) .

٣ — الإعانة في إنشاء المنشآت .

٤ — اختيار الفرصة المناسبة وتقديم طلب الأمير الحاكم إلى الدول المتقدمة على موافقتها بقبول إمارته كحليف لها ومن الممكن لأمراء الإمارات العربية الصغيرة الأخرى أن يخطوا نفس هذه الخطوة .

أما منطقة جوادر فقد تعقّد الوضع حولها، فمهما يكن من الأمر ربما أستطيع أن أتحمل المسئولية بعقد الصفقة الخاصة بسيطرة روسيا على هذه المنطقة تحت غطاء شركة للتجارة والإنتاج والتي يجب عليها أن تحقق كل ما هو ضروري في العمليات الحربية وتجمع المعلومات بهدف تأمين الوضع في المستقبل .

وإذن نتوقع أن نختتم هذه العملية بنجاح عندما تبدأ روسيا في إدارة سكة الحديد التي تصل حدود بلوخستان الفارسية بصورة شرعية .

صديقي جميع الاقتراحات السياسية المشار إليها أعلاه ستأتي بنتائج قيمة حينما توفر الظروف المناسبة .

(إمضاء)

وفي نهاية القرن التاسع عشر افتتحت القنصليات الروسية في جزيرة العرب وعلى سواحل الخليج العربي واحدة تلو الأخرى، في البصرة وجدة وبعد ذلك في بوشهر . وحقق ذلك نجاحاً في ميدان الدبلوماسية الروسية في هذه المنطقة الهامة .

وفي عام ١٩٠٤م أرسل القنصل العام ببوشهر اووفسيينكو ج.ف. إلى وزارة الخارجية للإمبراطورية الروسية "مختصر النتائج التي توصلوا إليها بعد افتتاح القنصلية العامة لإمبراطورية روسيا في بوشهر وعن ضرورة تأسيس مفوضيات روسية أخرى في أهم المناطق المجاورة لمدينة بوشهر"، وشرح الوضع العام في المنطقة بصورة مفصلة .

وحسب قوله في الجزء الأول من هذا التقرير، فإن شيوخ العرب أقاموا علاقات الصداقة مع القنصلية العامة للإمبراطورية الروسية حال افتتاحها . ولقد كانت علاقات الصداقة هذه تتبين في المسائل العملية وكذلك في استقبال السفن الحربية لإمبراطورية روسيا في جميع أنحاء الخليج العربي .

ولقد اهتمت القنصلية العامة لإمبراطورية روسيا بافتتاح الملاحة التجارية الروسية في الخليج العربي من جديد وقدمت الإرشادات والنصائح المفيدة والعملية إلى قباطنة السفن التجارية والوكلاء المحليين للشركة الروسية للملاحة والتجارة .

ولقد أصرت القنصلية العامة على افتتاح وكالات الموانئ على سواحل الخليج العربي، وكذلك على رفع الأعلام التجارية للشركة الروسية للملاحة والتجارة في موانئ الخليج وأيضاً على إبلاغ التجار المحليين المعلومات الضرورية الخاصة بشروط ونظام استعمال الخط الروسي الجديد[٤] .

ولهذا أصبح النشاط الدبلوماسي لإمبراطورية روسيا في الخليج العربي خطوة مهمة لتقوية المواقع الروسية في الشرق الأوسط بأكمله ولكن ومع الأسف لم يتحقق هذا في النهاية .

ونؤكد ثانية على أهمية إقامة العلاقات الدبلوماسية والاقتصادية بين إمبراطورية روسيا وسلطنة مسقط في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين .

وجذبت أهمية سلطنة مسقط السياسية والاستراتيجية والتجارية أنظار الدول المتطورة .

ولهذا نعرض عليكم الترجمة الكاملة للجزء الثاني والثالث من الوثيقة المذكورة أعلاه **"ملخص النتائج التي توصلوا إليها بعد افتتاح القنصلية العامة لإمبراطورية روسيا في بوشهر، وعن ضرورة تأسيس مفوضيات روسية أخرى في أهم المناطق المجاورة لمدينة بوشهر"** التي قدمها القنصل العام الروسي أووفسيينكو إلى وزارة الخارجية الروسية عام ١٩٠٤م والتي تنص على ضرورة تأسيس مفوضية روسية في مسقط وتحلل كل أسباب ونتائج اتخاذ هذه الخطوة لبلدنا .

ملخص النتائج التي توصلوا إليها بعد افتتاح القنصلية العامة لإمبراطورية روسيا في بوشهر، وعن ضرورة تأسيس مفوضيات روسية أخرى في أهم المناطق المجاورة لمدينة بوشهر[٥]

قدمها القنصل العام الروسي أووفسيينكو ج.ف. إلى وزارة الخارجية لإمبراطورية روسيا

بوشهر، ١٩٠٤/١/٤م

(ترجمة من اللغة الروسية)

الجزء الثاني

ضرورة تأسيس مفوضية سياسية روسية في مسقط

إن القنصلية العامة لإمبراطورية روسيا في بوشهر تؤدي مهمتين سياسيتين وبنجاح . فهي تلعب دوراً موازياً للتأثير الإنجليزي كمدافع عن المصالح الروسية . ولكن ليست للقنصلية في نفس الوقت أي إمكانيات ضرورية لأن تقوم بنفس الشيء في أهم المدن الأخرى المجاورة لبوشهر كمدينة مسقط على سبيل المثال .

وتحتاج المدينة المشار إليها إلى مفوضية سياسية روسية خاصة . وحسبما هو معلوم أنه يوجد فيها مفوضية إنجليزية **(Political Agency)** التي لم يلقَ تأثيرها المحلي مقاومة كافية ومناسبة بسبب عدم وجود مفوضيات سياسية روسية مشابهة دائمة بالمكان الذي تقع عليه .

وفي الوقت نفسه تحظى مدينة مسقط بأهمية سياسية واقتصادية فإنها لا تعتبر مركزاً تجارياً على الخط الساحلي للجزء الشرقي لجزيرة العرب فقط ولكن على ساحل مهران الذي يتبع مسقط من الناحية الاقتصادية .

وأن السفن التجارية الروسية لا يمكنها أن تمر بهذا الميناء البحري المتطور بصورة ظاهرة إذ أن الملاحة الروسية لم تحظ برعاية المفوضية الروسية الرسمية حتى الآن .

وقد حدد قباطنة السفن الحربية الروسية مسقط كأفضل النقاط من جميع الاعتبارات بالمقارنة مع نقاط الخليج العربي الأخرى لإقامة مستودع الفحم الحجري فيها، والذي تكون السفن الحربية والتجارية الروسية الداخلة إلى الخليج العربي في أمسّ الحاجة إليه.

ولا يمكن القول أن سلطان مسقط سيحظى في القنصلية الروسية المؤسسة حديثاً بدعم المقاومة والتأييد المعنوي ضد مطامع الإنجليز الذين كان انتشارهم غير المحدود في منطقة استراتيجية كمسقط التي تقع عند مصب الخليج العربي قد يؤثر على المصير السياسي لساحلي الخليج العربي .

أما حضور المفوضين القنصليين العاديين فقط في مسقط فمن المشكوك فيه أن يعطي النتائج المبتغاة ولاسيما موقف مفوض قنصلية روسيا العادي في مسقط حيث يوجد القنصل الإنجليزي . فسيكون الأداء أقل بدرجة لا تقاس بما هو عليه موقف الموظفين الإنجليز من وجهة نظر السكان الأصليين . وهذا السبب سيكون حاجزاً كبيراً في العملية النشيطة لذلك الوكيل . كما أنه يجب أن نمتلك هنا في مسقط أدوات المقاومة ضد الإنجليز .

الجزء الثالث

ملخص لبعض الأفكار فيما يخص تأسيس القنصلية الروسية بمسقط

يجب تأسيس مفوضية سياسية روسية بمسقط - إذا ما درسنا المسألة من وجهة نظر المصالح الوطنية — من الشروط الثلاثة التالية :

١ — أهمية موقف مسقط الجغرافي ودورها الاقتصادي في الخليج العربي وخليج عمان .

٢ — نشاط الإنجليز بمسقط ذو الأبعاد المغرضة والذي هو موجه بلا شك إلى احتلال هذه الأرض .

٣ — وجود الإمكانية الكاملة في أن نتصدى لنشاط الإنجليز بالوسائل السلمية وبالتالي نضعف تأثيرهم في المنطقة من جهة، ومن جهة أخرى نقيم العلاقات الاقتصادية بين بلاد فارس وروسيا .

وبالنسبة لما هو موضح في البنود الثلاثة السابقة تعتبر مدينة مسقط كما يلي :

١ — تقع مدينة مسقط على نهاية ساحل عمان وهي أهم النقاط الأمامية على خليج عمان . وفي الوقت نفسه تعتبر مسقط مركزاً ملاحياً هاماً لتجمع الملاحة الدولية في المحيط الهندي .

٢ – وبصفتها عاصمة سلطنة مسقط تعتبر مدينة مسقط أهم النقاط الجاذبة لكل السكان العرب من الواحات الداخلية المتعددة في الجزء الشرقي الجنوبي لجزيرة العرب .

٣ – ومن ناحية البحر، لم تطوِّر مسقط العلاقات التجارية الدائمة مع أقرب جيرانها على الساحل العربي لخليج عمان وسواحل الخليج العربي وكل جزرها والهند وبلوخستان ومهران فحسب، بل أقامت علاقات مع أبعد الموانئ كعدن وجدة وموانئ البحر الأحمر الأخرى، وكذلك مع مصر وحتى مع بعض موانئ أوروبا الغربية وأمريكا وآسيا الشرقية، وأما من ناحية البر فتقوم مسقط بعملية التبادل التجاري المستمر (بواسطة تنقل القوافل) مع كل الواحات الداخلية لجزيرة العرب الشرقية الجنوبية .

٤ – تعتبر مسقط بحكم موقعها الجغرافي وأهميتها كمركز تجاري، مركز جذب للعديد من ممثلي الحكومات والشعوب المختلفة من جهتي البحر والبر ولذلك قد تستخدم مدينة مسقط من قِبَل مفوضية روسية كمركز مراقبة جيدة على مجرى الحوادث السياسية والاقتصادية والتجارية .

٥ – وقد أولى الإنجليز عناية كبيرة إلى أهمية مسقط السياسية والاستراتيجية والتجارية منذ زمن طويل ولعدم وجود أي مقاومة جادة من طرف الأجانب في المنطقة فقد استفادوا من ضعف الشيوخ الأصليين وأعدوا الأساس بالتدريج لانتشارهم على كامل طول الساحل العربي .

٦ – يجب علينا أن نوقف الآن وبالطرق السلمية استقرار الإنجليز الذي يستمر دون ما رقيب بمسقط بالذات وعلى كل الساحل العربي للخليج العربي، وإلا فإن ذلك الاستقرار قد يقيم لهم بلا شك قاعدة قريبة مريحة للتأثير الناجح على الساحل الفارسي الجنوبي المجاور لمسقط بما فيه الجزر .

٧ – بعد انفتاح الملاحة التجارية الروسية على الخليج العربي تصبح مسقط نقطة مرحلية حتمية للسفن التجارية الروسية وكذلك لرجال الأعمال الروس الذين للأسف لم يجدوا حتى الآن وبدرجة كافية المساعدة السريعة والرعاية والتأييد

المباشر من الحكم الوطني بسبب عدم التواجد التكافئ في مسقط الآن لأية وكالة سياسية روسية .

ويجب قول نفس الشيء بالنسبة للسفن الحربية لإمبراطورية روسيا التي تهتم – إذا ما اضطرت – بحكم الكثير من الأسباب لزيارة مسقط في طريقها إلى الخليج العربي .

٨ – المفوضية السياسية الروسية المنشأة بمسقط بشرط أن تحصل على المعلومات عن مجرى الحوادث في المنطقة بشكل دقيق قد يمكنها بدون شك أن تسبق فتدرك وبعد ذلك أن تمنع سير الحوادث غير المرغوب فيها من وجهة نظر المصالح الوطنية .

وبعد إقامة العلاقات الدبلوماسية الصادقة المباشرة مع سلطان مسقط والشيوخ العرب الكثيرين الآخرين فإن المفوضية السياسية الروسية إلى جانب تواجد النفوذ الروسي ما بين السكان العرب قد تصبح أمام نظرهم موازنة كافية ضد أطماع الإنجليز غير الشرعية وبالتالي قد يكون السكان الأصليون أقل تنازلاً للإنجليز .

٩ – فضلاً عن أن المفوض الروسي بمسقط قد يستطيع أن يدافع عن المصالح الوطنية مباشرة على طول ساحل جزيرة العرب الشرقي الجنوبي كله وبالذات أن تقام الاتصالات الاقتصادية التجارية الأكثر مباشرة مع السكان الأصليين في المنطقة المذكورة .

وعلى هذه الطريقة تبدو أهمية موقف مدينة مسقط بالنسبة إلى خليج عمان والخليج العربي (وبالتالي على طول الساحل الفارسي الجنوبي كله) وضرورة شل مطامع الإنجليز في المستقبل في المنطقة بطرق سلمية من جهة . فتطوير وتقوية التأثير الروسي ما بين السكان الأصليين وبالذات إقامة الاتصالات الاقتصادية التجارية بشكل أوسع من جهة أخرى، يدل كل ذلك على أهمية تأسيس المفوضيات السياسية الروسية بأسرع وقت في مسقط .

وفي الوقت نفسه يجب أن نشير هنا إلى أنه من الضروري وبهدف تقوية موقف هذه المفوضيات أمام نظر السكان الأصليين أن ننشئ هناك مفوضيات سياسية روسية أساسية فقط لأن تأسيس نائب المفوضية العادية فضلاً عن الوكالة

القنصلية البسيطة بمسقط (بالمقارنة مع الإنجليز الذين قد افتتحوا بها أيضاً الوكالة السياسية (Political Agency) قد لا يتجاوب والمهام المكلفة بهذه المفوضية تماماً .

وأما الصعوبات المحلية المتعلقة بظروف المناخ القاسية في هذه المنطقة والتي لها تأثير على عمل المؤسسات المخطط لها فيجب عليها أن لا تحول دون تحقيق الخطط المقررة ولاسيما أن هذه الصعوبات قد يمكن تلافيها إلى حد كبير بفضل تحقيق الرفاهية المادية للسفراء المقبلين من جهة وعن طريق السماح — مثل الذي تسلمته القنصلية العامة ببوشهر - بنقل القنصلية إلى مكان صالح للاصطياف في الجبال المجاورة خلال الصيف القائظ من جهة أخرى .

(إمضاء)

وهنا نعرض عليكم أيضاً المراسلات بين القنصل العام في بوشهر باسك والوكيل التجاري للشركة الروسية للملاحة والتجارة في مسقط، وهو فرنسي الجنسية، السيد جوجويو والتي تحتوي على معلومات مهمة عن الوضع في هذه المنطقة وكذلك عدد من الإرشادات العملية والمعينة والموجهة إلى تقوية المواقع السياسية والاقتصادية والتجارية لإمبراطورية روسيا في منطقة الخليج (أنظر ترجمة الوثيقة ٨ و٩ و١٠ و١١) ولكنه من المناسب برأينا أن نقدم لكم سابقاً الوثيقتين المهمتين الأخريين .

والوثيقة الأولى هي رسالة القنصل العام ببوشهر نيقولاي باسك إلى قبطان سفينة "تروفر" السيد فينجير جينوفسكي والتي تضمنت أوامر القنصل بدخول سفينته "تروفر" إلى مسقط لاستلام شحنة الجمال على ظهرها حسب طلب سلطان مسقط .

والوثيقة الثانية هي برقية القنصل العام باسك إلى وزارة الخارجية الروسية في سان بطرسبرج والتي تعتبر تقريراً عن الأوامر القائمة لقبطان "تروفر" والمذكورة آنفاً .

رسالة القنصل الروسي العام ببوشهر نيقولاي باسك إلى قبطان السفينة "تروفر" التابعة للشركة الروسية للملاحة والتجارة السيد فينجير جينوفسكي[٦]

بوشهر، ١٩٠٥/١/٢٢م

(ترجمة من اللغة الروسية)

إلى السيد قبطان السفينة "تروفر" المحترم

أتشرف أن أخبركم أنه عند رحلة الإياب من الخليج العربي إلى أوديسا يجب عليكم أن تمروا بمسقط لاستلام الجمال مع أدلائها على ظهر سفينتكم الموثوق بها لأن صاحب السمو سلطان مسقط يبعثها عبر جدة إلى مكة المكرمة

أما ما يختص بشروط استلام الشحنة والإدلاء فسأبرق لكم إلى مسقط برقية .

(إمضاء)

برقية القنصل الروسي العام ببوشهر نيقولاي باسك إلى وزارة الخارجية، القسم الأول، سان بطرسبرج[٧]

بوشهر، ١٩٠٥/١/٢٢م

(ترجمة من اللغة الروسية)

بعدما أرسلت لكم برقية صباح اليوم استلمت خبراً عن وصول السفينة "تروفر" إلى بوشهر بتاريخ ١٩٠٥/١/٢٣م وقد أمرت القبطان بالدخول إلى مسقط حيث سيتسلم الأوامر فيما بعد .

(إمضاء)

برقية القنصل الروسي العام ببوشهر نيقولاي باسك إلى الوكيل التجاري التابع للشركة الروسية للملاحة والتجارة السيد جوجويو، مسقط[٨]

بوشهر، ١٩٠٥/٢/٨م

(ترجمة من اللغة الفرنسية)

أرجو أن يتقبل صاحب السمو تحياتي الصادقة وإبلاغه عن استلام الأوامر التي وفقاً لها يكون النقل إلى جدة مجاناً .

(إمضاء)

رسالة السيد جوجويو إلى القنصل العام ببوشهر باسك ن.[٩]

مسقط، ١٩٠٥/٢/١٢م

(ترجمة من الفرنسية)

إلى السيد القنصل العام

أتشرف أن أؤكد استلام برقيتكم المؤرخة بـ ١٩٠٥/٢/٨م . وفور استلامي برقيتكم ترجمتها إلى العربية وسلمتها إلى السيد فيصل .

وإضافة إلى ذلك استلمت أيضاً رسالة السيد جورسكي بتاريخ ٤ فبراير وجاء فيها بأنكم كنتم ببوشهر واستحسنتم اقتراحي . وكذلك استلمت برقية من إدارة الشركة الروسية للملاحة والتجارة وبرقية ثانية من قبطان السفينة "تروفر" وبرقية ثالثة من السيد جورسكي بإبلاغ تاريخ دخول "تروفر" . فهكذا بالمجموع استلمت أربع برقيات والتي تعبر كلها عن الاستعداد التام لتلبية رغبة سلطان مسقط وقد أرضاه ذلك جداً . ولكن السلطان أعجبته برقيتكم الأخيرة بصفة خاصة التي جاء

فيها عن صاحب السمو شخصياً . وقد طلب مني أن أشكركم شكراً جزيلاً وإنني أعمل ذلك بكل سرور .

فتقبلوا احترامي العميق المخلص

(إمضاء)

P.S. – طلب السيد السلطان مني أن أستشيركم بصدد إرسال رسالته والتي شكر فيها من خلالكم الحكومة الروسية .

رسالة القنصل العام ببوشهر باسك ن. الى السيد جوجويو[10]

بوشهر، فبراير ١٩٠٥م

ترجمة عن اللغة الفرنسية

إلى السيد جوجويو العزيز

أتشرف أن أؤكد لكم استلام رسالتكم بتاريخ ١٢ للشهر الجاري ولقد استلمت تواً من نفس الشخص رسالة سلطان مسقط القصيرة والحذرة ولكنني قررت أن أجيبه بالعربية وهل من الممكن أن تخبروني عن تأثير رسالتي عليه . وإنني متأكد أنه قد حدثكم عن مدى تأثيرها عليه ومن ناحية أخرى آمل بأن هذا الأمر الصغير سيؤثر على تحسين علاقاتكم مع هذا الحاكم .

فتقبلوا خالص احترامي وتقديري لشخصكم

(إمضاء)

رسالة السيد جوجويو إلى القنصل العام باسك ن.[11]

مسقط، ١٩٠٥/٣/٣م

(ترجمة من اللغة الفرنسية)

إلى السيد القنصل العام

إلحاقاً برسالتكم المرسلة إلينا بتاريخ ١٩٠٥/٢/٢١م أرسلت بيد رسول محترم إلى السيد فيصل رسالتكم الموجهة إليه طي رسالتنا بتاريخ ١٩٠٥/٢/٢٤م، حيث حالت ظروف إقامة الحداد على أخيه في تسليمه الرسالة شخصياً، وقد قمت كذلك بإضافة بعض الكلمات الخاصـــة التي تعبر عن رغبتي بمقابلته شخصياً .

وقد أرسل لي السلطان أحد أخوته حيث عبرت له عن عميق تعزيتي بوفاة أخيهم .

وفي ١٩٠٥/٣/١م أخبرني السلطان من خلال رسوله بإمكانية لقائه في اليوم التالي .

وفي اليوم التالي ذهبت لمقابلة السلطان إلا أنني فوجئت باتخاذ السلطان بعض التدابير الاحترازية وعلى سبيل المثال أنه قد طلب من شقيقه وابنه الأكبر البقاء خلال مدة المقابلة التي امتدت لساعة واحدة وقد حالت هذه التدابير بين مناقشة المواضيع الشخصية واقتصرت المحادثة على المواضيع العامة . إلا أنني حاولت مع ذلك أن أتحدث حول السفينة "ديانا" التي أنتظر وصولها في ٥/٣/ ١٩٠٥م إلا أنه لم يبتغي التباحث حول هذا الموضوع .

وحسب رأيي فإن سبب تصرف السلطان يمكن أن يعزى لسببين هامين

السبب الأول هو سبب شخصي يتعلق بوجود الوكلاء الإنجليز الذين يحيطون بالسلطان لهدف تطويل المعاهدة الإنجليزية العمانية والموقعة عام ١٨٩١ م، إضافة إلى رغبتهم بإجراء بعثة علمية في المناطق الداخلية لعمان والتي من الممكن أن تؤدي إلى طلبات أكثر طمعاً في السلطان خصوصاً في حالة تعرض الباحثين لاستقبالهم استقبالاً غير طيب من مواطني السلطنة .

في حين يتعلق السبب الثاني بالوضع السياسي العام حيث أنه بالرغم من كون السلطان شخصاً أمياً لا يجيد القراءة والكتابة إلا أنه مفاوض ماهر بإمكانه استغلال الوسائل للاتصال مع الإنجليز وتقوية العلاقات معهم في نفس الوقت .

فإنه إذا ما حدث وانتصرت روسيا في الحرب مع اليابان، بالرغم من أن الكثير من دول أوروبا الصديقة لروسيا تشك في هذا الانتصار، فإنه من الممكن أن يتحول موقف السلطان باتجاه إقامة علاقات أفضل مع روسيا .

من جهة أخرى فإنني أعتقد بأن هناك العديد من الوكلاء الإنجليز الذين يسيئون لبلدهم حيث عبر السلطان عن أفكاره بحرية فقد وصف أحدهم (Mr. Gaskin) شخصياً بكونه خبيثاً، وهذا يوضح مدى صراحة السلطان إضافة لعدم رضائه عن بعض الوكلاء الإنجليز .

أما فيما يختص بعلاقاتنا الخاصة مع السلطان فإنني أعتقد بأنها أصبحت طيبة بعد زيارتكم لمسقط في شهر يوليو الماضي . إلا أنني أضيف أن السلطان شخص حذر جداً في التعبير عن رضائه حيث من الصعب معرفة مدى قناعته أو رضائه عن هذا الأمر أو ذاك .

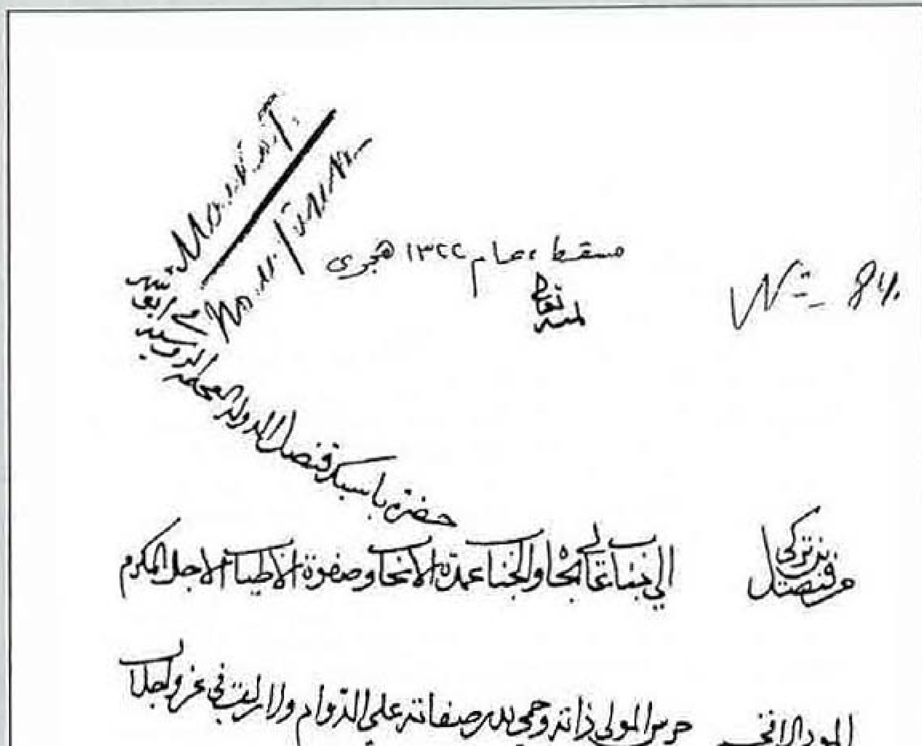
أخيراً تقبلوا احترامي العميق وتقديري المخلص

(إمضاء)

وكذلك نقدم لكم بعض نماذج المراسلة بين شيخ مسقط فيصل بن تركي والقنصل العام لإمبراطورية روسيا في بوشهر نيقولاي باسك لعام ١٩٠٥م والخاصة بإرسال الجمال إلى مكة المكرمة عبر جدة على ظهر السفينة الروسية "تروفر" مجاناً وفقاً لطلب السيد السلطان والتي تدل على وجود العلاقات الطيبة المتبادلة بين "حاكم الظهر" ومندوب "روسيا القيصرية البيضاء" (أنظر الوثيقة ١٢ ، ١٣ في الملحقات)

وللأسف الشديد لم يتم هذا الأمر كما كان مخططاً له ولم تستطع إمبراطورية روسيا أن تحتل مكانتها في مسقط إلى جانب بريطانيا وفرنسا .

ولكنه ورغم المسافات الشاسعة بين إمبراطورية روسيا وسلطنة مسقط الصغيرة في منطقة الخليج العربي يؤكد التاريخ على تواجد العلاقات الطيبة والتفاهم والاحترام المتبادل بين الطرفين في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين .



No. 84

مسقط ، عام ١٣٢٢ هجري

حضرت باسيك قنصل الدولة المعظمة الروسية

من فيصل بن تركي الى جناب المحب والجناب عمدة الاخوان وصفوة الاطياب الاجل الاكرم

المود الافخم حرس المولى ذاته وحمى له صفاته على الدوام والارتقاء في عز وجلال

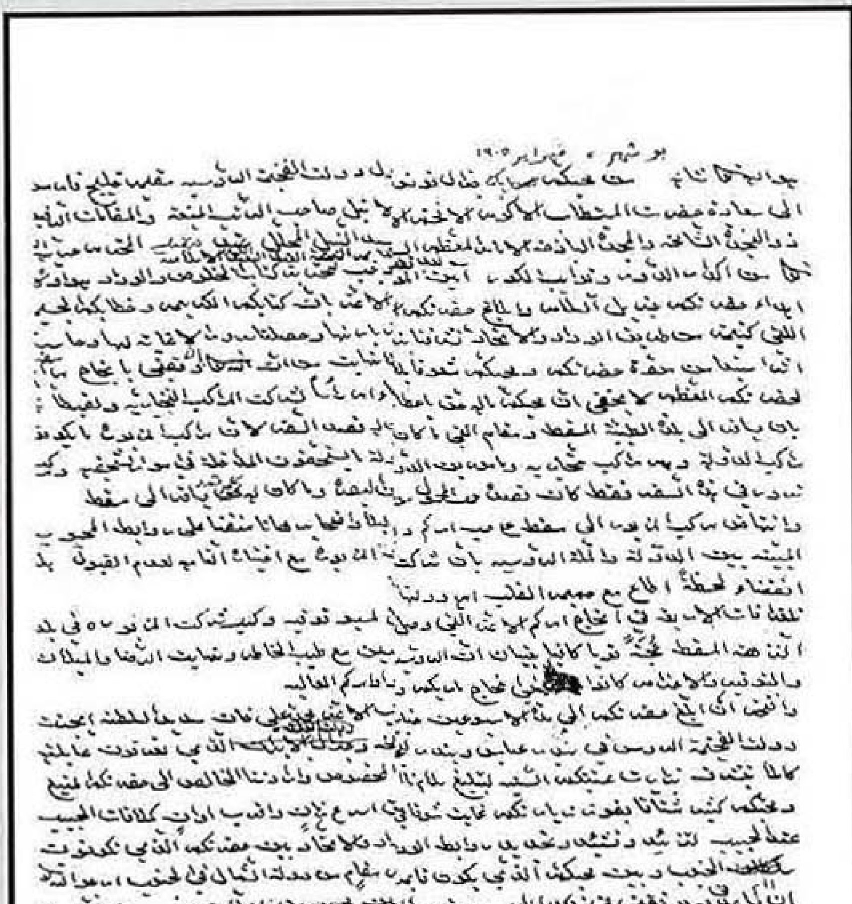
الموجب تحرير الكتاب البلاغ عد جزيل السلام وتمام ما احببناه وكيلكم بهمتكم العاليه

وجهتم لنا المركب لتحميل الركاب الى جده فقد شكرناكم غاية التشكر لفعلكم الجميل

وقد صرنا بغاية الممنونية والابتهاج ودم سالم والسلام حرر ١٣٢٢ محرم

ورفع تشكراتي للاداره

رسالة شيخ مسقط فيصل بن تركي إلى القنصل الروسي العام ببوشهر نيقولاي باسك



رسالة القنصل الروسي العام في بوشهر نيقولاي باسك إلى سلطان مسقط

21

A. GOGUYER
MASCATE (Arabie)
Via Brindisi-Bombay

Adresse télégraphique
GOGUYER-MASCATE

Mascate, le ______________ 190

Note pour Monsieur N. Bogoyavlensky

(٣)

J'ai la conviction, presque la certitude, que le Gouvernement français ne poursuit qu'une politique négative dans la région du Golfe Persique. J'ai là-dessus de nombreux indices, entre autres le choix des deux titulaires actuels des vice-consulats de Bouchehr et surtout de Mascate (à Bagdad il y en a un tout pareil), à la place de ceux qui y étaient et en sont partis malgré eux, avec disgrâce; le rôle ridicule du croiseur "Catinat"; les concessions perpétuelles faites à l'amour-propre anglais; plusieurs incidents où l'on a supporté, de la part du résident de Mascate de véritables provocations; la peur du vice-consul, lui aussi, de fournir du charbon aux navires de guerre russes, alors que le consul anglais en a cédé à n'importe qui, même aux Français; son opposition, qui a triomphé d'un avis favorable du Comité de l'Asie française, à mon projet d'établir ici un entrepôt particulier de charbon, etc. J'ai aussi là-dessus des renseignements personnels, de sources différentes, très concordants, mais que je ne puis confier au papier.

La raison, pour cette question comme pour toutes celles de la politique extérieure, c'est que la France n'a eu et n'aura longtemps encore à sa tête que des hommes de parti, du parti anticlérical, tous aussi fanatiques que le parti opposé; et comme ils n'ont pas une assez forte majorité pour exercer le pouvoir sans passion, leur tâche principale, à beaucoup près, est d'affaiblir le parti adverse par la persécution. Le ministre des Affaires étrangères, dans un pareil gouvernement n'a qu'une fonction, procurer la tranquillité à quelque prix que ce soit, même par des moyens précaires, sur la valeur desquels on se fait volontiers illusion,

comme

الرسالة التي بعث بها القبطان جوجويو إلى بوجويافلينسكي والمؤرخة ٨ يوليو ١٩٠٢م

الهوامش

المصدر : أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية في موسكو

١ – الملف ٢/٢٠٧ القنصلية في البصرة، القائمة ١، الإضبارة ١ . ملخص الملف القنصلية في البصرة (١٩٠١ – ١٩١٤م)، الصفحات ١ و٢ .

٢ – الملف ٢١٠ القنصلية في بوشهر (١٩٠١ – ١٩١٨م)، القائمة ٦٢٣، الإضبارة ٩ الأرشيف السياسي، سنة ١٩٠٢م، الصفحات ٢٥ – ٢٥ ظهر، تاريخ ٢٧ يونيو ١٩٠٢م .

٣ – الملف ٢١٠ القنصلية في بوشهر (١٩٠١ – ١٩١٨م)، القائمة ٦٢٣، الإضبارة ٩ الأرشيف السياسي، سنة ١٩٠٢م، الصفحات ٢٦ – ٣٠، تاريخ ٨ يوليو ١٩٠٢م .

٤ – الملف ٢١٠ القنصلية في بوشهر (١٩٠١ – ١٩١٨م)، القائمة ٦٢٣، الإضبارة ٩ الأرشيف السياسي، سنة ١٩٠٢م، الصفحات ٣١ – ٣٢ ظهر، تاريخ ٢٣ سبتمبر ١٩٠٢م .

٥ – الملف ٢١٠ القنصلية في بوشهر (١٩٠١ – ١٩١٨م)، القائمة ٦٢٣، الإضبارة ١٥٦ الخليج العربي (مختصر النتائج التي توصلوا إليها بعد افتتاح القنصلية العامة لإمبراطورية روسيا في بوشهر وعن ضرورة تأسيس مفوضيات روسية أخرى في أهم المناطق المجاورة لمدينة (بوشهر) (١٩٠١ – ١٩١٣م)، الصفحات ٨٠ – ٨٧ ظهر، تاريخ ٤ يناير ١٩٠٤م .

٦ – الملف ٢١٠ القنصلية في بوشهر ١٩٠١٠ – ١٩١٨م)، القائمة ٦٢٣، الإضبارة ٤٢ مسقط، الكويت، البحرين، سنة ١٩٠٥م، الصفحة ٥٦، تاريخ ٢٢ يناير ١٩٠٥م .

٧ – الملف ٢١٠ القنصلية في بوشهر (١٩٠١ – ١٩١٨م)، القائمة ٦٢٣، الإضبارة ٤٢ مسقط، الكويت، البحرين، سنة ١٩٠٥م، الصفحة ٥٥، تاريخ ٢٢ يناير ١٩٠٥م .

٨ – الملف ٢١٠ القنصلية في بوشهر (١٩٠١ – ١٩١٨م)، القائمة ٦٢٣، الإضبارة ٤٢ مسقط، الكويت، البحرين، سنة ١٩٠٥م، الصفحة ٥٢، تاريخ ٨ فبراير ١٩٠٥م .

٩ – الملف ٢١٠ القنصلية في بوشهر (١٩٠١ – ١٩١٨م)، القائمة ٦٢٣، الإضبارة ٤٢ مسقط، الكويت، البحرين، سنة ١٩٠٥م، الصفحة ٥٣، تاريخ ١٢ فبراير ١٩٠٥م .

١٠ - الملف ٢١٠ القنصلية في بوشهر (١٩٠١ - ١٩١٨م)، القائمة ٦٢٣، الإضبارة ٤٢ مسقط، الكويت، البحرين، سنة ١٩٠٥م، الصفحة ٦١، تاريخ ٢١ فبراير ١٩٠٥م .

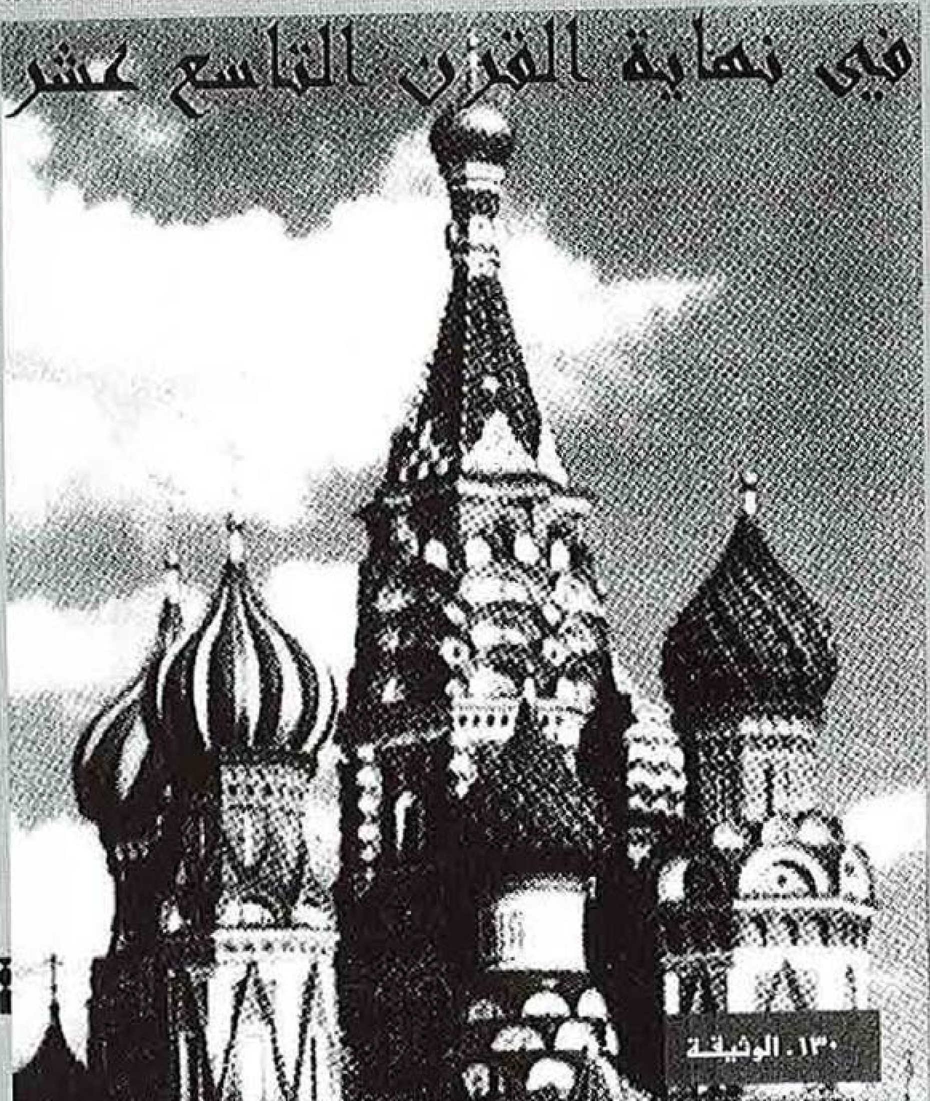
١١ - الملف ٢١٠ القنصلية في بوشهر (١٩٠١ - ١٩١٨م)، القائمة ٦٢٣، الإضبارة ٤٢ مسقط، الكويت، البحرين، سنة ١٩٠٥م، الصفحات ٦٢ - ٦٣، تاريخ ٣مارس ١٩٠٥م .

١٢ - الملف ٢١٠ القنصلية في بوشهر (١٩٠١ - ١٩١٨م)، القائمة ٦٢٣، الإضبارة ٤٢ مسقط، الكويت، البحرين، سنة ١٩٠٥م، الصفحة ٥٧، تاريخ سنة ١٣٢٢هـ .

١٣ - الملف ٢١٠ القنصلية في بوشهر (١٩٠١ - ١٩١٨م)، القائمة ٦٢٣، الإضبارة ٤٢ مسقط، الكويت، البحرين، سنة ١٩٠٥م، الصفحة ٥٩، تاريخ فبراير ١٩٠٥م .

من هم القناصل الروس

في نهاية القرن التاسع عشر



١٣٠ . الوثيقة

في شبه الجزيرة العربية؟

وبداية القرن العشرين ؟

بقلم : أ.د. جينادي جارياتشكين

طبقاً لاتفاقية "كيوتشوك – كينارجي" التي تم توقيعها في العاشر من يوليو سنة ١٧٧٤م والتي أشرفت على انتهاء الحرب الروسية التركية (١٧٧٤ – ١٨٦٨م) حصلت روسيا على إمكانية أن تفتح ولأول مرة في التاريخ قنصلياتها على أراضي العرب – في الإسكندرية ودمشق وبيروت . وقد وصل أول قنصل روسي، النبيل كوندراتي فون طونوس إلى الإسكندرية في فبراير ١٧٨٤م[١] .

وكان يجب أن تمر مائة سنة أخرى لكي تفتح الإمبراطورية الروسية قنصلياتها في حوض الخليج العربي وشبه الجزيرة العربية . كان العالم يتغير . ووفقا لتغير العالم كانت سياسة روسيا الخارجية تكتسب أشكالا ومضامين جديدة .

وبادرت الحكومة الإمبراطورية بنهج سياسة جديدة تجاه هذه المنطقة . واستوعب الخليج العربي اهتمام الحكومة الروسية والسبب الواضح هو الدور المتزايد للخليج في نظام العلاقات الدولية واحتياجات الرأسمال الروسي إلى أسواق ... الخ . وقد تطلب هذا في بداية الأمر، كما تفيد إحدى البلاغات الدبلوماسية الروسية، إنشاء شبكة إقليمية من "نقاط المراقبة الدبلوماسية الروسية"[٢] .

وأصبحت بغداد أول قنصلية روسية في حوض الخليج العربي . وقد وصل أول قنصل روسي إلى هذه المدينة "ليف أفجوستوفتش أبارجارديت" في الثالث من نوفمبر ١٨٨٠م وسلم للمحافظ العثماني الجديد "تقي الدين" الفرمان بتعيينه قنصلاً إمبراطورياً في بغداد[٣] . ومن الطريف أن القنصلية الروسية في حلب كانت تتولى أمور القنصلية الروسية في بغداد[٤] .

وقد كتب السفير الروسي في القسطنطينية "نوفيكوف" إلى "أبارجارديت" في سنة ١٨٨٠ ما يلي : "لا نعرف الظروف المحلية للمنطقة التي تدخل في دائرة تخصصكم والتي لا يوجد لنا ممثل فيها حتى الآن، لهذا لا أستطيع أن أمدكم بتعليمات تفصيلية وأرجوكم في كل الحالات حينما تعتبرون ذلك ضرورياً ألا تترددوا في التوجه باستفسارات وتعليمات إلى السفارة"[٥] .

كما نرى من المقتطف السابق، فقد تسنى للدبلوماسيين الروس أن يبدأوا من "الصفر" . لذلك كان على الدبلوماسيين الروس في المنطقة أن يعملوا دون الإجازات التي كانت تعطى، كالعادة، مرة كل خمس سنوات وكثيراً ما كانوا يواصلون العمل حتى بدون الراحة الأسبوعية واليومية . ولا ننسى عند ذلك أحوال العمل والحياة القاسية للغاية عموماً . ويشير إلى ذلك نشاط القنصل الروسي الأول "أبارجارديت" الذي اضطر أن يترك وظيفة القنصل في بغداد بسبب إرهاقه الشديد في عام ١٨٨٦م . وانتقلت جميع شئون السفارة الروسية في بغداد من جديد إلى القنصل الفرنسي لما بين النهرين، لأنه لم يكن هناك حينئذ بديل لأبارجارديت . وقد تسلم "بيوتر بونافيدين" هذه الوظيفة الخالية عام ١٨٨٩م فقط .

وقد قرر القنصل الجديد وهو يتوجه إلى مكان العمل في بغداد بأن يمر في طريقه بموانئ الخليج العربي لأنه فهم، حسب تعبيره، أن هذه المنطقة ستكون في المستقبل القريب إحدى أهم مجالات المنافسة بين الدول الأوروبية الكبرى[٦] . هكذا رأى "بونافيدين" رأي العين مسقط وبندر بوشهر والكويت والبحرين ومحمرة . وقبل ذلك كانت الدبلوماسية الروسية غالباً ما تستقي معلوماتها عن منطقة الخليج العربي وساحل شبه الجزيرة العربية الشرقي من مصادر إنجليزية وفرنسية .

وتقييماً لعمل القنصلية الروسية في بغداد خلال الفترة ١٨٩١ – ١٨٩٢م كتب ب.إ. بونافيدين : "تغيرت طبيعة العمل إلى حد ما . استلمنا إمكانية الحصول على المعلومات الصحيحة من بعض أقاليم الفرس وتركيا وسلكنا طريقاً مستقلاً ولم نعد نعتمد على الصدفة كما كان يحدث من قبل .

وقد أصبح باستطاعتنا الانتقال بالتدريج، مع مراعاة الحذر، من دور المراقب غير النشيط إلى المراقب الفعال، بمعنى مواجهة النفوذ الإنجليزي مما أدى إلى تحسن العلاقات مع السلطات المحلية، التي كانت تتمتع بعناية ودعم القنصلية باستمرار دون الإضرار بكرامتها[٧] . إن المراسلات القنصلية بين "بونافيدين" والسفير "نيليدوف" في القسطنطينية كانت مليئة بأسماء "الحجاز" و "الخليج العربي" و "شبه الجزيرة العربية" و "الكويت" الخ ... ولذلك لا يمكن أن نتفق مع تأكيدات المؤلف "إيجور سيننتشينكو" عندما يقول في كتابه "الخليج العربي : نظرة عبر مائة سنة . موسكو، ١٩٩١م" ، "يمكن اعتبار تقرير القنصل الروسي "أ.ف. كروجلوف"أول وثيقة مكرسة للكويت"[٨] . فبالفعل، يعتبر هذا التقرير أكبر وثيقة مكرسة لهذه الإمارة الخليجية خلال كل تاريخ وجود هذا الأرشيف . غير أنه لا يمكن أن نقلل من أهمية نشاط "بيوتر بونافيدين" الذي كان يخصص للكويت في بلاغاته الدورية مكانة ملحوظة . أما أول ذكر لهذه الإمارة فيعود بجدارة إلى "ليف أبارجارديت" الذي أثار في سنة ١٨٨٤ بالذات اهتمام رؤسائه الدبلوماسيين بهذا البلد[٩]، على حد تعبير السفير الروسي في القسطنطينية، فإن "النشاط المفيد والدائب" للقنصل بونافيدين قد أدى، في نهاية الأمر، إلى نتيجة مؤسفة إذ أصيب بالحمى الشديدة . ونتيجة لذلك فقد تقدم إلى رئيسه الأكبر في خريف عام ١٨٩٢م بطلب تقديمه الإجازة إلى كراتشي للعلاج على حساب الحكومة . هكذا كان يجري تكيف

قناصلنا مع الأحوال في حوض الخليج العربي . وكان هذا طبيعياً إذا وضعنا في الاعتبار أنهم قد ولدوا جميعاً في الجزء الشمالي من الكرة الأرضية وفي نفس الوقت، من الطريف، أن كل هذه الوعكات كانت مؤقتة . وقد قضى بونافيدين كل حياته تقريباً في الشرقين الأدنى والأوسط وكان يحصل على إجازته مرة كل خمس سنوات(١٠) . تأكد ذلك، ونحن نستعرض "كشف ترقيات القنصل العام في القسطنطينية بونافيدين" المؤرخ في سنة ١٩١٢م . فقد قضى بونافيدين إجازته الدورية خلال خمسة أشهر في سنة ١٨٨١م، وخمسة أشهر في عام ١٨٨٨م وخمسة أشهر في عام ١٩٠٢م وشهرين في سنة ١٩٠٤ وثلاثة أشهر في عام ١٩٠٨ وثلاثة أشهر عام ١٩٠٩ وشهرين في عام ١٩١٠ وأربعة أشهر في عام ١٩١٢م(١١) .

في الواقع فإن كل حياة بونافيدين قضاها في الشرقين الأدنى والأوسط . فقد أُرسِل بونافيدين بعد تخرجه من الفرع الدراسي بالقسم الآسيوي لوزارة الخارجية (في ٣ يوليو ١٨٧٦م) إلى تبريز طالباً في البعثة "لتنفيذ واجبات الخدمة"(١٢) . وقد عاش في تبريز حتى أكتوبر ١٨٧٨م(١٣) . وقد عُيِّن في ١٤ أغسطس سنة ١٨٧٩م سكرتيراً ومترجماً للقنصلية في أستراباد(١٤) . وفي مايو ١٨٨٣م نُقل سكرتيراً إلى تبريز(١٥) . وقد عُين بونافيدين في فبراير ١٨٩٧م قنصلاً عاماً في أصفهان ونقل في يوليو ١٩٠٣م قنصلاً عاماً إلى القسطنطينية حيث خدم حتى الحرب العالمية الأولى(١٦) .

وينبغي أن نضيف أنه قبل ذلك رفض أن يُنقل إلى أفريقيا .

وفي نفس مرحلة التسعينات من القرن التاسع عشر جرت تغيرات هامة في الجزء الغربي من شبه الجزيرة العربية . وقد دعم الإمبراطور الكسندر الثالث في ١٥ أغسطس ١٨٩٠م تقرير وزير الخارجية الروسي "ن.ك. جيرس" حول فتح قنصلية روسية في جدة . وتم بالفعل افتتاح هذه القنصلية في الثالث من شهر يونيو عام ١٨٩١م وكان "ش.م. إبراهيموف وهو من مواليد آسيا الوسطى أول مدير لها . وكان فتح هذه القنصلية مهماً جداً بالنسبة لروسيا من النواحي السياسية والاقتصادية والثقافية إذ كان آلاف المسلمين الروس يسعون إلى هناك للقيام بواحد من أقدس وأكرم واجبات الإسلام وهو الحج . وكانت القنصلية الروسية في جدة قائمة حتى الحرب العالمية الأولى وبعد ذلك تجدد نشاطها إثر قيام الثورة الاشتراكية البلشفية في روسيا(١٧) .

وفي بداية القرن العشرين افتتحت القنصليتان الإمبراطوريتان المكلفتان بتحقيق المهام الأساسية لنهج بطرسبورج الجديد . ففي سنة ١٩٠٠م تم إنشاء القنصلية الروسية العامة في بندر بوشهر . وقد ترأسها "جابرييل فلاديميروفيتش أووسيينكو" الذي كان سكرتيراً لقنصلية بغداد قبل ذلك . وقد توغلت روسيا بشكل رسمي في منطقة الخليج العربي وأصبحت إلى حد كبير قوة موازية للنفوذ الإنجليزي اللامحدود في المنطقة . وقد أنشئت القنصلية الثانية في البصرة التي وصل لافتتاحها القنصل الروسي الأول في البصرة "أ.ف. كروجلوف" . وقد أشار أووسيينكو في سنة ١٩٠٥ في "خلاصة موجزة للنتائج المحققة من إنشاء قنصلية في بوشهر" أنه "ابتداء من سنة ١٩٠٠م بدأت الصورة السيئة السابقة تتغير بشكل ملحوظ وسريع"(١٨) . بفضل نشاط ج.ف. أووسينكو، وأ.ف. كروجلوف، وأ.أ. أداموف، و ن.ب. باسيك، وخلال عدة سنوات تحققت نتائج واضحة : مواجهة الإنجليز الأمر الذي أثار حماس السكان المحليين وإقامة صلات سياسية وتجارية وحضارية وثقافية بين الروس والخليجيين والنجاح النسبي للتجارة الروسية (إنشاء خط ملاحي بين أوديسا والبصرة، وافتتاح فروع البنوك الروسية في المنطقة الخ ...) . ومن الممكن أن نواصل سرد إنجازات القناصل الروس في الخليج .

(أنظر بصدد ذلك كتاباً جديداً للمؤلفين د. يافعة، يوسف جميل و د. جينادي جارياتشكين تحت إشراف د. علي أباحسين . صدر في المنامة في صيف ١٩٩٩م : إطلالة على تأريخ الخليج والجزيرة العربية من خلال الوثائق الروسية . الجزء الأول المنامة، البحرين، ١٩٩٩م" . ويتضمن هذا الكتاب الجوانب العديدة لحجم التعامل بين الإمبراطورية الروسية والدول العربية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين .

ونرجع إلى موضوعنا الرئيسي : من هم القناصل الروس في شبه الجزيرة العربية في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ؟

لقد كانوا كلهم، في الغالب، من مواليد المحافظات المركزية للإمبراطورية الروسية وإن كان بعضهم من أوكرانيا وإقليم بحر البلطيق . ومن حيث الأصول الاجتماعية كان القناصل الروس ينتسبون بصورة عامة إلى طبقة النبلاء، أي إلى الفئة المتوسطة في الهرم السياسي والاجتماعي الروسي خلال هذه الفترة .

نيقولاي باسيك (من مواليد ١٨٥٠) الذي خلف جافرييل أووسيينكو في منصب القنصل العام في بوشهر في أغسطس سنة ١٩٠٢م كان ابناً لإقطاعي متوسط يقطن قرب مدينة خاركوف ثاني أكبر مدينة أوكرانية بعد كييف[١٩] .

إن آباء ألكسندر أداموف (من مواليد ١٨٧٠)، أول قنصل روسي في البصرة وإيفان أسبينسكي (من مواليد ١٨٨٣) الذي كان يعمل سكرتيراً للقنصلية العامة في بوشهر في بداية القرن العشرين، كانا يعملان مدرِّسَيْن في المدارس الثانوية[٢٠] .

أما والد نيكولاي ياكوفليف (من مواليد ١٨٧٦) الذي كان يعمل قبل الحرب العالمية الأولى مترجماً وسكرتيراً في القنصلية العامة في بوشهر فقد كان موظفاً في مصلحة البريد[٢١] .

ولويكا بيوتر (من مواليد ١٨٨٠) الذي كان يشغل قبل الحرب العالمية الأولى سكرتيراً في بغداد ونُقِل مع بدايتها إلى بندر بوشهر مديراً للقنصلية العامة فقد كان والده من فناني المسارح الإمبراطورية وكان كاثوليكياً[٢٢] .

وكان أليكسي صافونوف (من مواليد سنة ١٨٧٦)، الممثل القنصلي في البصرة في بداية القرن العشرين وفيكتور ماشكوف (من مواليد عام ١٨٥٨)، سكرتير القنصلية في بغداد في السبعينيات من القرن التاسع عشر فقد كان والداهما ضابطان متقاعدان في رتبة نقيب[٢٣] .

أما الأصول الاجتماعية لسيرجي توخالكا (من مواليد ١٨٧٤) الذي كان يعمل قنصلاً عاماً في بغداد قبيل الحرب العالمية الأولى وفاسيلي أنتيبوف (من مواليد ١٨٧٩) والذي كان يعمل قنصلاً في البصرة في سنوات ما قبل الحرب فتعود أيضاً إلى النبلاء[٢٤] .

والنتيجة الرئيسية التي تستنبط من أصول القناصل الروس في حوض الخليج العربي خلال المرحلة المشار إليها هي أنهم لم يكونوا من أسر أرستقراطية وإنما كانوا ينتسبون إلى "الطبقة المتوسطة كما تسمى الآن، ولم يكونوا مدللين وحصلوا على تربية وتعليم كافيين وعرفوا قيمة النقود والتعب لتحصيلها، وكما هو المعتاد، كانوا يحبون العمل وكانوا مستعدين لصعوبات الحياة وتحمل الحرمان وكان هذا مهماً جداً للمستشرق المضطر للابتعاد عن الوطن والعيش في ظروف استثنائية .

بالطبع، لم تكن الأصول الاجتماعية الملائمة كافيةً لتحقيق النتائج المنتظرة من مستشرق محترف في الشرق العربي ومنطقة الخليج العربي . وكان من أهم مقومات التنفيذ الناجح والمأمول هو المستوى التعليمي والعلمي .

ما هو التحصيل الذي حصل عليه القناصل الروس الذين كانوا يعملون في الجزئين الشرقي والغربي من شبه الجزيرة العربية خاصة وفي حوض الخليج العربي عامة ؟

لقد سلكوا جميعاً طريقاً واحداً وتخرجوا ضمن تخصص علمي واحد هو الاستشراق . لنعرض مثالاً على ذلك، مصير إحدى الشخصيات المركزية في موضوعنا ونعني القنصل العام في بندر بوشهر جافرييل أووسيينكو (أنظر أيضاً "الإطلالة") .

ولد أووسيينكو في مدينة ستارادوب محافظة تشيرنيغوف في مارس ١٨٧٠ (توفي سنة ١٩١٦في رشت بإيران) وأنهى المدرسة الثانوية، وقبل في عام ١٨٨٩ في معهد لازاريف للغات الشرقية (باختصار – م.ل.ل.ش.) التابع لجامعة موسكو . وتخرج منها سنة ١٨٩٣ . وكما جاء في شهادة م.ل.ل.ش. الموقعة من طرف مديرها، فقد تميز ج. أووسيينكو خلال الدراسة "بالتفوق الدراسي والسلوك الجيد" واستحق لذلك، بعد إنهاء المعهد، الدرجة العاشرة (من ١٧ درجة في روسيا حينئذ) . وبالموازاة تعلم ج. أووسيينكو في كلية الحقوق بجامعة موسكو وكشف عن "معارف ممتازة" أثناء امتحانات السنة الدراسية ٩٣/١٨٩٢ في مجال القانون التجاري والقانون البحري والاقتصاد السياسي وموسوعة القانون(٢٥) .

وكانت الامتحانات في الكلية الشرقية بجامعة سان بطرسبرج و م.ل.ل.ش. كتابية وشفهية . على سبيل المثال، الكسندر أداموف الذي تخرج من الكلية الشرقية "**في القسم العربي الفارسي التركي التتري**" كما كان يسمى حينذاك في سنة ١٨٨١ . قدم الامتحان الكتابي وهو ما يشبه رسالة دبلوم في اللغة الفارسية كان موضوعها : "**أحاديث عن سلالة علي**" . أما في اللغة العربية فكان عنوانها : "**حوار علي مع معاوية**" وقد قيِّمت الرسالتان بتقدير "مقبول جداً" .

وكما نرى، كان قناصل المستقبل ينالون التحصيل الاستشراقي في أغلب الأحوال في جامعة سان بطرسبرج و م.ل.ل.ش.، بالرغم من وجود مراكز الاستشراق الأخرى في روسيا .

من الواضح، أن الدراسة في عاصمتي الإمبراطورية، المركزين الثقافيين من الطراز الأوروبي كانت تؤثر أيضاً بشكل ملحوظ في نوعية هذا التحصيل والمستوى الثقافي العام . عملياً، فإن جميع القناصل أنهوا الدراسة خلال أربع سنوات في "القسم العربي الفارسي التركي التتري" فما هي المواد التي تضمنها هذا القسم ؟

كانت هذه المواد، اعتماداً على برنامج الكلية الشرقية لجامعة سان بطرسبرج : علم الدين، والأدب العربي، واللغة الفارسية، والدروس التطبيقية للغة الفارسية، واللغة العثمانية، واللغة التترية، والفقه، وتأريخ الشرق، واللغة الألمانية . وهذه المواد نقلناها عن شهادة دبلوم نالها بيوتر بونافيدين في سنة ١٨٧٥م . وكان خريجو الكلية الشرقية يحصلون على درجة المرشح . مع الأخذ بعين الاعتبار أن الطلبة كانوا يعرفون اللغة الفرنسية في مرحلة الدراسة الثانوية .

بعد ذلك، يُفتح أمامهم الطريق واسعاً نحو المستقبل . وكثيراً ما كان المستشرقون الشبان ومن بينهم القناصل يختارون المضمار الدبلوماسي . غير أن القوانين كانت تلزمهم بالخدمة العسكرية لبعض الوقت في مكان إقامتهم،كما كان المعتاد . هكذا، على سبيل المثال، التحق جافرييل أووسيينكو بعد أن نال دبلوم الاستشراق، كمتخصص في الشرق الأوسط . بعد أن تخرج من م.ل.ل.ش. في ١٨٩٣م، وبعد فترة وجيزة من الراحة، التحق من ١٥ ديسمبر ١٨٩٣ إلى ٨ نوفمبر ١٨٩٤ بالوحدة العسكرية في مدينة ستارادوب حيث أنهى دورة عسكرية وتقدم لامتحان ينال باجتيازه رتبة ملازم . وبعد ذلك قضى دورة عسكرية أخرى من ١٥ مايو إلى ٢٦ يونيو ١٨٩٥م في تلك الوحدة العسكرية نفسها من جديد[٢١] .

ومثل هذا التدريب العسكري — شيء عادي حتى في سائر البلدان الأوروبية . هنا من المهم أن نبرز شيئاً آخر : ساعدت دورات التدريب العسكري في الجيش في رفع مستوى الانضباط والتأهب اللازم للتنفيذ اللائق للمهام المحترفة التي كُلف بها القناصل :

اكتساب اللياقة البدنية العالية واللازمة للموظفين الدبلوماسيين في الطقس الحار والرطب والصعب عموماً في أقطار الشرقين الأدنى والأوسط في ظل عدم وجود الظروف المنزلية العادية الضرورية (المراوح الخ ...)ولا ننسى أن جميع القناصل المذكورين آنفاً ولدوا في مناطق روسيا المعتدلة التي كانت واقعة فوق شمال موسكو (بونافيدين، أداموف، أنتيبوف والآخرون) . قارنوا البصرة، وبغداد، وبندر بوشهر من ناحية، وسان بطرسبرج من ناحية أخرى .

وفقط بعد دورتين عسكريتين مزدوجتين، متوسطة وقصيرة، كان من الممكن أن يقبل أووسيبنكو وباقي المرشحين في العمل بوزارة الخارجية الروسية في القسم الآسيوي الذي كان يعتبر التخرج منه شرطاً لا مفر منه للنشاط الدبلوماسي .

وهنا لابد من التوقف لنوضح ما هو القسم الآسيوي والفرع الدراسي التابع له ؟

تم إنشاء القسم الآسيوي بوزارة الخارجية الروسية في عام ١٨١٨م، وهو مؤسسة حكومية كانت تقوم بتنظيم علاقات روسيا مع بلدان الشرق الأدنى والأوسط والأقصى، ومع شعوب آسيا الوسطى التي كانت تدخل في تركيبة روسيا الإمبراطورية . أما الفرع الدراسي التابع لهذا القسم فكان عبارة عن مؤسسة تعليمية نخبوية أعدت خلال كل مرحلة وجودها (حوالي مائة سنة) ٢٥٠ مستشرقاً بطريقة فردية . وهي نخبوية بمعنى ارتفاع المخصصات الحكومية وحجم المهام الضخمة النبيلة التي كان من المتعين على خريجيها القيام بتنفيذها وليس بمعنى اختيار طلابها من نخبة المجتمع، من فئاته الرفيعة من الطبقات الكبيرة الدخل .

هذا الفرع الدراسي التابع للقسم الآسيوي للوزارة تم إنشاؤه في العام ١٨٢٣ بأمر من الإمبراطور الكسندر الأول بهدف تحضير الإخصائيين الدبلوماسيين المجيدين للغات وتاريخ بلدان الشرق .

في البداية كانت مدة الدراسة تستغرق سنتين . ولتدريس اللغات الشرقية كان يستجلب أساتذة أجانب، وعلى سبيل المثال، دعا الفرع الدراسي الشيخ المصري محمد الطنطاوي، الأستاذ بجامعة الأزهر سنة ١٨٣٨، ليقوم بتدريس اللغة العربية . وابتداءً من

عام ١٨٤٨ بدأ البروفيسور الطنطاوي يدرس في قسم اللغة العربية في جامعة سان بطرسبرج .

وكانت دعوة الأجانب والدبلوماسيين الروس الذين عاشوا مدة طويلة في البلدان الشرقية تخدم الغرض الرئيسي وهو ضرورة إتقان الطلاب العملي للغة الكتابة ولغة الحديث .

وكانت تدرس في الفرع الدراسي اللغات : الفارسية والعربية والتركية والأرمينية واليونانية والإيطالية إلى جانب الفقه والتأريخ والجغرافيا لبلدان آسيا وأفريقيا . وكانت مدة الدراسة تتراوح من سنة إلى خمس سنوات وذلك حسب شهادة الطالب قبل الالتحاق بالجامعة أو بالمدرسة الثانوية(٢٧) .

فخريجو الجامعات كانوا يدرسون سنة واحدة فقط بالفرع الدراسي في القسم الآسيوي، وكان تدريسهم على مستوى عال . ومن هنا كان مستواهم التعليمي والثقافي والاحترافي عالياً . وقد برهنوا على هذا بنجاحاتهم وعملهم في حوض الخليج العربي .

أ.د. جينادي جارياتشكين

جامعة موسكو

الهوامش

١ – و.أ. أولانتسكي . القنصليات الروسية في الخارج في القرن الثامن عشر . الجزء الأول . موسكو ١٨٩٩ ، ص٦٥١–٦٥٢ (باللغة الروسية) .

٢ – أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية المحفوظ بالسفارة في القسطنطينية، الملف ٥١٧/٢، الإضبارة ١٢٤٣، ١٨٩٩، ص١٤٦ (باللغة الروسية) .

٣ – نفس المصدر، الإضبارة ١٢٥٥، ١٨٨١ ص١ .

٤ – نفس المصدر، الإضبارة ١٢٢٤، ص١ .

٥ – نفس المصدر، ص١ – ٢ .

٦ – نفس المصدر، الإضبارة ١٢٣٣، ١٨٨٩، ص٣٧ – ٤١ .

٧ – نفس المصدر، الإضبارة١٢٣٦، ١٨٩٢، ص٥٩ .

٨ – نفس المصدر، الإضبارة ١٢٤٣، ص٦٩ – ٩٧ .

٩ – نفس المصدر، الإضبارة ١٢٢٨، ١٨٨٤، ص١ – ١٠ .

١٠ – نفس المصدر، المحفظة ١٤٩ "المكتب التركي (القديم)"، الملف أ ٥٠٢، الإضبارة ٤٢٥، ١٨٩٠، ص٢ – ٧ .

١١ – نفس المصدر، المحفظة ١٥٩ "إدارة الأفراد والشئون الإدارية"، الملف ٤٦٤، الإضبارة ٢٧٣٩، ص٧ – ٨ .

١٢ - نفس المصدر، المحفظة ١٩٤ "بعثة في طهران"، الملف أ ٥٢٨، الإضبارة ٤٣٠، ص٣ و ٨ .

١٣ - نفس المصدر، ص١٢ .

١٤ - نفس المصدر، ص١٦ .

١٥ - نفس المصدر، ص٢٥ .

١٦ - نفس المصدر، المحفظة ١٥٩ "إدارة الأفراد والشئون الإدارية"، الملف ٤٦٤، الإضبارة ٢٧٣٩ ، ظهر ص١٠.

١٧ - نفس المصدر، المحفظة ١٤٩ "المكتب التركي (القديم)"، الملف أ ٥٠٢، الإضبارة ٤٢٥، ١٨٩٠، ص٣ - ٣٦ .

١٨ - نفس المصدر، المحفظة "القنصلية في بوشهر"، الإضبارة ١٥٦، ١٩٠١ - ١٩١٣، ص٥ - ٦ .

١٩ - نفس المصدر، المحفظة ١٥٩ "إدارة الأفراد والشئون الإدارية"، الملف ٤٦٤، الإضبارة ٢٥٧٧ ، ١٨٧٥ - ١٩١٤، ص١٦ - ١٧ .

٢٠ - نفس المصدر، الملف ٢/٧٤٩، الإضبارة ٥٦ ص٣٥، ٦٣، نفس المصدر، الملف ٣/ ٧٤٩، الإضبارة ١٠٣٢، ص٢٧ .

٢١ - نفس المصدر، الملف ٢/٧٤٩، الإضبارة ١ ، ١٩٠٤ ، ص١٣٨ .

٢٢ - نفس المصدر، الملف ٣/٧٤٩، ١٩٠٧، الإضبارة ١، ص١٠٩، ١٢١؛ الملف ٧١٣، الإضبارة ٢٥٥ ، ١٩١٧، ص٦ .

٢٣ - نفس المصدر، الملف ٣/٧٤٩، الإضبارة ١٣٥١، ص٥١، ٦٤، الملف ١/٧٤٩، الإضبارة ٩٨٥،ص٢٦٤ - ٢٦٥ .

٢٤ – نفس المصدر، الملف ٧٤٩/١، الإضبارة١١٦٩، ص٣٩٩؛ الملف ٧٤٩/٢، الإضبارة ١، ص٢٣ .

٢٥ – نفس المصدر، الملف ٧٤٩/١، الإضبارة ١١٦٩، ص٤٠٠ ظهر .

٢٦ – نفس المصدر، الملف٧٤٩/١، الإضبارة ١١٦٩، ص٤٠٨ – ٤٢٩ .

٢٧ – تأريخ الاستشراق الروسي حتى أواسط القرن التاسع عشر . موسكو، ١٩٩٠، ص ١٥٠ – ١٦٧ (باللغة الروسية) .

لم يكن أهل الكويت بمنأى عن التجارة في الخليج منذ برعوا في صناعة السفن وفي التجارة عبر أعالي البحار خصوصاً بعد عام ١٧٥٠م . وهذا البحث يسلط الضوء على تجارة الخيل بدءاً من عام ١٨٠٠م حتى نهاية الحرب العالمية الثانية .

لقد كان الكويتيون يحملون تجارتهم إلى موانئ عديدة سواء داخل الخليج أو إلى عمان وسواحل أفريقيا وموانئ الهند .

أما تجارة الخيل التي عرفت في القرنين التاسع عشر والعشرين على نطاق واسع في الخليج والجزيرة العربية فقد أرست دعائم التجارة وكرست الخبرة لدى أبناء سواحل الخليج، وفي أواخر القرن الثامن عشر عرفت الكويت هذه التجارة، بل وبرع فيها التجار على مستوى كبير لما لهم من خبرة في الإبحار إلى أعالي البحار .

بقلم : علي بن إبراهيم الدرورة

تجارة الخيل في الكويت



الوثيقة ١٤٥

وهناك أدلة كثيرة على أن الكويتيين هم آخر من شحن كميات من الخيل إلى موانئ الهند حيث توقفت هذه التجارة في الموانئ الأخرى وعندما أقامت بريطانيا إمبراطوريتها في الهند كانت الخيل من أهم الطلبات بالنسبة للجيش، خاصة عندما تشتعل الحروب ضد أعدائهم في المناطق الشمالية من الهند طوال النصف الأول من القرن التاسع عشر وجزء من النصف الثاني[١] . وكذلك استخدمت للسباقات أيضاً، ويبدو أن هناك عقوداً اقتصادية أبرمت بين حكومة بومباي والشيخ عبد الله بن جابر فيما يتعلق بالتجارة الحرة والتي تواصلت مع حلفائه جابر بن عبد الله وصباح بن جابر[٢] .

الخيل

كان الكويتيون يجمعون الخيل من ثلاث جهات هي المحمرة والبصرة والقصيم وكان أحد تجار الخيل في القصيم يدعى ابن راشد هو الذي كان يزود الكويتيين بالخيل، ويجمعها بالجهرة قبل إرسالها إلى بومباي[٣] . وهو الذي شجع الناس في القصيم على تجارة الخيل إلى جانب أنه كان يجلب الكثير من البضائع الواردة من ميناء الكويت إلى نجد والتي كانت تلقى إقبالاً شديداً[٤] .

وكان الكويتيون قد شحنوا خيلاً من ميناء البصرة أو الموانئ التابعة لها . ولا نستبعد أن يكون لأبناء الكويت اصطبلات لتربية الخيل في المناطق المحيطة بدولتهم، إلى جانب اصطبلاتهم الخاصة، وكذلك التجار الذين كانوا يتعاملون معهم في استلام شحنات الخيل .

لقد كان تجار الخيل يعتمدون على السماسرة والدلالين الذين يتوجهون إلى القرى والمناطق المختلفة في العراق لشراء الخيل وتجميعها تمهيداً لتصديرها . ويعتبر العراق المصدر الرئيسي لتجارة الخيل في الكويت[٥] . وقد ذكر الكولونيل (بيلي) المقيم البريطاني في الخليج فيما بين عامي (١٨٦٣ — ١٨٦٥) في أحد تقاريره أن الكويت كانت تصدر حوالي ٨٠٠ حصان أصيل سنوياً إلى الهند يرسل منها ٦٠٠ رأس مباشـــرة من الكويت و٢٠٠ رأس من البصرة[٦] .

بعض أعلام التجارة

من الجدير بالذكر هنا بعض أعلام تجارة الخيل والأسر التي كانت تهتم بهذا الأمر والذين عرفوا على نطاق واسع في تلك الفترة .

فقد عرف من بين الأسر الكويتية الميسورة جداً آل عبد الجليل وكانوا من كبار بيوتات التجارة . وقد امتلكت هذه الأسرة سبعة مراكب من نوع البغلة خاصة بالتجارة العامة وكان بعضها مخصصاً لتجارة الخيل .

والذي يبدو أن سفن البغلة عدلت لتكون مهيأة لنقل الخيل أو أنها بنيت خصيصاً لذلك لأنه كما هو معروف في التاريخ الكويتي فإن الكويتيين ذوي شهرة كبيرة في صناعة السفن، فمن المستبعد الاعتقاد بأن هذه النوعية من السفن كانت تبنى خارج الكويت لما للكويتيين من خبرة عريقة . وهذا النوع من السفن غير مستعص بناؤه في الكويت[٧] .

ويذكر الشيخ يوسف القناعي[٨] أن الكويتيين كانوا يتشاءمون من تجارة الخيل ويعتقدون بسرعة زوالها وذلك ربما للمجازفة التي يقدم عليها التاجر، كما يذكر أن من أهم تجار الخيل في الماضي كل من : ١ – يوسف عبد المحسن البدر المتوفى سنة ١٢٩٧ هجرية الذي اشتهر بهذه التجارة وقد كانت تجارته بمعزل عن تجار الخيل في البصرة .
٢ – علي العامر . ٣ – محمد بن فيد . ٤ – محمد المديـرس . ٥ – أحمد العدواني .
٦ – سليمان الجاسم .

وقد تضاعفت تجارة الخيل بعد الحرب العالمية الثانية إلى أن توقفت تماماً بعد أن انتفت الحاجة إليها إلا في بعض الحالات النادرة[٩] .

وكان لتجار الخيل الكويتيين وكلاء من عرب شمر وغيرهم من الوكلاء عند بعض القبائل النجدية[١٠] .

وتشير بعض المصادر إلى أنه في سنة ١٩٤٥م – وهي آخر سنوات الحرب العالمية الثانية – كانت الكويت مازالت تصدر الخيل، وربما واصلت هذه التجارة إلى ما بعد هذا التاريخ .

أنواع السفن

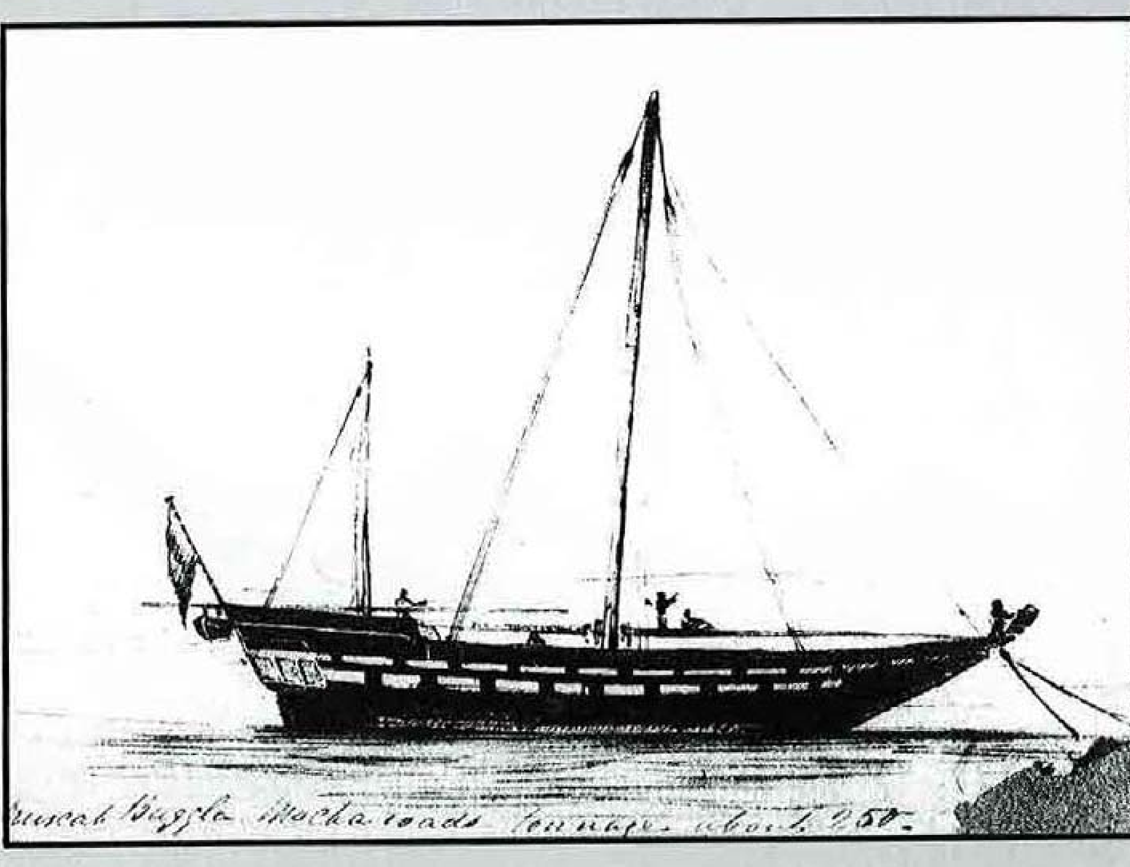
خلال القرنين التاسع عشر والعشرين استخدم الكويتيون سفناً من نوع (البغلة) وقد استمر ذلك حتى نهايـــة الحرب العالمية الأولى (١٤ – ١٩١٨م) وفي بدايـــة الثلاثينيات (١٩١٩ – ١٩٣٤م تقريباً) .

وكانت سفن البغال أو (البغلات) قد هيئت خصيصاً لنقل الخيل، أما الوضع العام لكل حصان فكان يوضع في عنبر ضيق بحجم الحصان الواحد بحيث لا تعطيه المجال للجلوس أو الانبطاح لأنه إذا جلس تتأثر قوائمه . ويستمر (وقوفاً) على هذا الحال ثلاثة أسابيع . وأقل مدة ١٦ يوماً إذا كان الطقس ملائماً وهي مدة الرحلة بين الخليج والهند . ويكون ذيله موجهاً للبحر ورأسه موجهاً للداخل حيث حوض التغذية وكانت الخيل تُحمل على طابقين (سطحين) والطابق العلوي يغطى بعريش حتى لا ينظر الحصان إلى الشراع وفي نفس الوقت تحجب عنه رؤية البحر حتى لا يصاب بالدوار وهو الذي يطلق عليه (الدوخة أو الهدم) وحتى لا تتعب نفسية الحصان أو يمرض إذا تنبه إلى أنه في البحر .

وتحمل سفينة البغلة من ٨٠ –١٠٠ حصان في كل شحنة وهذا يعني أن كل سفينة يتواجد فيها عدد من سائسي الخيل وهم الأشخاص المختصون بالعناية بها ولهم خبرة وإلمام بذلك .

وتعد (البغلة) خلال القرن التاسع عشر الميلادي والنصف الأول من القرن العشرين أكثر أنواع مراكب النقل الخليجية استعمالاً، ولم ينافسها سوى مركب (البوم) خاصة في بداية القرن العشرين . وقد كان في الكويت ٣١ مركباً تعمل بين موانئها وموانئ الهند .

كانت حمولة البغلة تتراوح بين ١٥٠ – ٤٠٠ طن وربما تزيد أحياناً إلى نحو ٥٠٠ طن، وقد يبلغ طولها ١٣٥ قدماً . وكانت الكبيرة منها ذات قاعدة نحاسية، ولها ثلاثة صوار، كما كانت المؤخرة عريضة، تتميز بالسطح العالي وبالممرات العالية، وبالفتحات الخمس الموجودة بها وهي غالباً مزخرفة بحفريات ونقوش دقيقة . وقد برع العمانيون



مركب بغلة من مسقط سنة ١٢٤٨هـ/١٨٣٢م



مركب بوم يفرغ حمولته في صور

والهنود المقيمون في عمان بأعمال الحفر والزخرفة بصورة فائقة في هذا النوع من المراكب وخاصة الأبواب والنوافذ، وبهذا الطابع المتميز كانت البغلة نوعاً من المراكب التي ارتبط أبناء الخليج ارتباطاً خاصاً بها، أما مقدمة البغلة فهي منحنية تعلوها كرة خشبية في مقدمة السفينة والتي تدعى محلياً (العنافة) والتي تميزها عن غيرها من المراكب .

ولعل آخر سفينة من نوع (البغلة) بنيت في مدينة الصور معقل بناء أكثر سفن الخليج كان عام ١٣٧١هـ/١٩٤٠م حيث انتشرت الأبوام في الخليج واستخدمت في نقل تجارة أعالي البحار، وتدل مؤخرة سفينة البغلة، وهي مؤخرة عريضة وعالية يتخللها دفة السفينة والتي تعرف بـ (السكان)، على مدى تأثر صناعة السفن في عمان بالأسلوب الأوروبي خاصة بعد الغزو البرتغالي للجنوب العربي والخليج في منتصف القرن العاشر الهجري (بعد ١٥٢١م) ولهذا فإن السفن العمانية تفوقت على السفن الخليجية الأخرى خاصة وأن سفينة البغلة وضعت فيها مدافع عند بداية صنعها مما مكن اليعاربة من التفوق البحري وإقامة الإمبراطورية العمانية وإخراج البرتغاليين من المنطقة .

وسفينة البغلة تعددت أغراضها وأدخلت عليها تحسينات كثيرة خلال الـ ٣٥٠ سنة الماضية أو القرون الأربعة الماضية على وجه التحديد خلال (٩٥٠هـ - ١٣٥٠هـ)[١١] .

سعر الحصان

كان سعر الحصان في مدن الخليج بعد عام ١٨٠٠م وحتى قبل الحرب العالمية الثانية (٤٠ - ١٩٤٥م) ٣٠٠ روبية هندية للحصان الراشد أي الذي عمره ثلاث سنوات وقد يزيد هذا السعر قليلاً حسب بعض المميزات الظاهرة عليه كاللون أو البقع اللونية المميزة أو طول الذيل، والأهم من كل هذا، الفصيلة أو السلالة خاصة إذا كانت أمه عربية، أما إذا كان أبوه عربياً وأمه غير ذلك فإن سعره يقل لأنه لا يعد أصيلاً . وقد كان سعر الحصان يختلف من ميناء إلى آخر وكذلك من حصان إلى آخر .

ويكلف الحصان الواحد ما يعادل ٢٠٠ روبية مقابل العلف والعناية به طوال الرحلة من موانئ الكويت إلى بومباي في الهند .

ويباع هناك بسعر ٦٠٠ روبية للرأس الواحد ولكنه لا يباع بأكثر من ٩٠٠ روبية كأقصى حد .

إذن كان الحصان الواحد يعادل ٦٠٠ – ٩٠٠ روبية خلال التسعين سنة التي تلت ١٨٥٠م وحتى وقوع الحرب العالمية الثانية .

وكان دخل الحصان الواحد بين ٢٠٠ و ٥٠٠ روبية وذلك حسب السوق الذي يتحكم فيه العرض والطلب إلى جانب المواصفات والمقاييس بالنسبة للفصيلة والمظهر .

إذا افترضنا أن سعر الرأس الواحد ٣٠٠ روبية بمعنى أنه بيع في الهند بـ ٧٠٠ روبية فتعد هذه صفقة تجارية موفقة، ولهذا فتجارة الخيل متوارثة في الخليج منذ القدم .

ويشير باكنجهام[١٢] إلى تصدير ١٥٠٠ رأس خيل عربية من البصرة والكويت إلى الموانئ الهندية : بومباي، مدراس، كاليكوتا في سنة ١٨١٦م وكان سعر الحصان في ميناء التصدير – أي الخليج – ٣٠٠ روبية، لكنه حين يصل مقصده يكون قد أنفق عليه من العلف والنقل ما يوازي ٢٠٠ روبية .

فإذا افترضنا أن الحصان كان يباع بـ ٨٠٠ روبية فإنه يعطي التاجر ١٠٠ روبية من أرباح محطة الوصول كربح صافٍ، بينما كان الخيل في البنغال أكثر غلاء لأنها كانت الأفضل بين معظم الشحنات. وغالباً يباع الحصان في البنغال بـ ٢٥٠٠ روبية بالرغم من أن معدل السعر هو ٢٠٠٠ روبية أو أقل بـ ٢٠٠ روبية (أي ١٨٠٠ روبية) .

ويدخل من خلال تجارة الخيل العربية في السنة الواحدة ما مقداره ٧٥٠,٠٠٠ روبية[١٣] .

التجارة المزدوجة

نشطت تجارة أبناء الخليج مع الموانئ الهندية منذ القدم، وساعدتهم الخبرة العريقة على مر العصور، فكان تجار اللؤلؤ أو تجار التمور أو تجار الخيل يذهبون إلى الهند فيبيعون ما لديهم ويعودون محملين بالمواد والتموين . أما إذا لم يشترِ أي من ربابنة هـــذه السفن أية بضـــائع فإنه لا يعود فارغاً فقد كانـــوا يستغلون سفنهم في النقل إلى أي ميناء .

وكان التجار يعودون محملين بالقهوة والأرز والطحين وكذلك الأخشاب لندرتها في موانئ الخليج وهذه إما تكون ملكاً للربان أو بتوصية من تجار الخليج أو بالاتفاق المسبق مع أصحاب مكاتب الوكالات في موانئ الهند .

وكان من عادة التجار بعد إفراغهم للشحنة أو البضاعة المحمولة من الخليج إلى الهند، أن يأخذوا سفنهم للصيانة لمدة يوم أو أكثر حسب حاجة السفينة للصيانة وهي العملية التي تدعى (جداف) وإذا أجدفت السفينة ووثق الربان أنها لا تحتاج إلى المزيد من الصيانة خلال طرشتها – أي رحلتها التالية – أمكنه حمل أي بضاعة متفق عليها خلال فترة جداف السفينة .

وقد كانت معظم الخطوط هي :

١ – الهند – زنجبار، ٢ – الهند – مسقط (مسكت)، ٣ – الهند – رأس الخيمة (جلفار)، ٤ – الهند – القطيف، ٥ – الهند – عدن، ٦ – الهند – ظفار، ٧ – الهند – خور فكان، ٨ – الهند – بندر عباس، ٩ – الهند – بندر نوى، ١٠ – الهند – البحرين، ١١ – الهند – الكويت، ١٢ – الهند – البصرة، ١٣ – الهند إلى أي ميناء (حسب وجهة النوخذة أو البضاعة المتفق على شحنها) .

الحرب العالمية الثانية

في أثناء الحرب العالمية الثانية بين عامي (١٩٤٠ — ١٩٤٥م) فرض الحصار على السفن العراقية من وإلى البصرة، فكان التجار اليهود العراقيون يصدرون الخيل عن طريق الكويت وكانت لهم وكالة قديمة في بومباي وقد استعانوا بالسفن الشراعية المتوفرة في تلك الفترة ولم يكن الكويتيون قد استغنوا عن السفن التقليدية في تصدير الخيل حسب ما يبدو خلال الفترة بين ١٩٣٣ و ١٩٤٠م بالرغم من وجود السفن البخارية التي تجوب الخليج جنباً إلى جنب مع السفن الشراعية . وكان من التجار النشطين داود ساسون وهو يهودي عراقي وكان يرسل شحنته من البصرة في سفن بخارية ويبدو أن يهود العراق في البصرة كانوا يتاجرون بالخيل منذ أمد بعيد وكانوا يستأجرون السفن الكويتية في الشحن من الكويت أو من البصرة، إلا أنهم خلال الحرب العالمية العظمى كانوا ينقلون الخيل بسفن مستأجرة من موانئ الكويت مباشرة إلى الهند .

وفيما يبدو أيضاً فإن المراكب الصغيرة كانت تصدر الخيل من موانئ صغيرة بعيداً عن ميناء البصرة إلى الكويت ومن ثم تشحن إلى الهند مباشرة .

وقد كان اليهود يستوردون القماش وخاصة الحرير ويصدرونه إلى الشام عن طريق العراق فقد كانت السفن تعود من الهند محملة بالكثير منه للاتجار به .

تفصيل لإحدى الرحلات

في شوال سنة ١٣٦١ هـ/أكتوبر ١٩٤٢م قام النوخذة عيسى بن عبد الله العثمان في بومه المسمى (المحمدي) أثناء الحرب العالمية الثانية برحلة إلى الهند وتعد من أهم الرحلات وكان سوق التمر كاسداً في تلك الأثناء حيث ذهب إلى الهند فارغاً ثم شحن سفينته من هناك وأبحر بها إلى الكويت عن طريق ساحل مكران حتى دخل الخليج في

طريقه إلى الكويت، وعندما وصلها أنزل جزءاً من حمولته وأمضى تسعة أيام عند أهله، قام بعدها ببدء رحلة ثانية من الكويت إلى الهند ولم يجد غير ستة من الخيل العربية لأحد أهالي الموصل ، فنقلها على سطح سفينته وحصل على ٩٠٠ روبية كأجرة . وفي بومباي أنزل شحنته البسيطة من الخيل في يوم الاثنين ٢٢ ربيع الأول ١٣٦٢هـ - الموافق ٢٨ مارس ١٩٤٣م، والجدير ذكره أن بوم المحمدي لم يكن مجهزاً لتحميل الخيل حيث من المعلوم أن سفن البغلات هي التي كانت مجهزة لهذا النوع من التجارة[١٤] .

علي بن إبراهيم الدرورة

باحث ومحاضر بمركز زايد للتراث والتاريخ

العين - الإمارات العربية المتحدة

المراجع

١ – ABU HAKIMA, A.M. : THE MODERN HISTORY OF KUWAIT (1750-1965). LUZAC & COMPANY : LIMITED, LONDON.

٢ – عدة مكالمات هاتفية مع الدكتور يعقوب يوسف الحجي (١٠ رمضان ١٤٢٤هـ وبعده) .

٣ – القناعي، يوسف عيسى : صفحات من تاريخ الكويت، ط ٥، س ١٩٨٧م، الكويت .

٤ – جمال، محمد عبد الهادي : الحرف والمهن والأنشطة التجارية في الكويت، ط١، س ٢٠٠٢م

٥ – عمان وتاريخها البحري، وزارة الإعلام والثقافة، مسقط، د.ت، د.ن. .

٦ – الحجي، يعقوب يوسف، روزنامة النوخذة عيسى بن عبد الله العثمان، الكويت، ط١، س ١٩٩٩م، مركز البحوث والدراسات الكويتية .

٧ – الرشيد، عبد العزيز : تاريخ الكويت، ط١، س ١٩٧١م .

الهوامش

١ — M.H. of Kuwait, P.105.

٢ — M.H. of Kuwait. OP., Cit., the same page.

٣ — جمال، الحرف والمهن، ص٢٩٤ .

٤ — More information in M.H. Of Kuwait, p. 102-105.

٥ — تاريخ الكويت، عبد العزيز الرشيد ص٦٨ وكذلك ص٢٨٢ .

٦ — جمال (السابق) ص٢٩٤ .

٧ — محادثة مع الدكتور يعقوب الحجي في ١٠ رمضان ١٤٢٤هـ .

٨ — القناعي، يوسف عيسى، صفحات من تاريخ الكويت، ص٦٧ .

٩ — جمال، محمد بن عبد الهادي : الحرف والمهن والأنشطة التجارية، ص٢٩٤,٢٩٥ .

١٠ — جمال (السابق) ص٢٩٤ .

١١ — باختصار مع التعديل عن : عمان وتاريخها البحري، ص١١٨ — ١٢١ .

١٢ — M.H. of Kuwait, P.105.

١٣ — M.H. of Kuwait, op, Cit. P.105.

١٤ — الحجي، يعقوب يوسف، روزنامة النوخذة عيسى عبد الله العثمان، الكويت، ط١، س ١٩٩٩ م، مركز البحوث والدراسات الكويتية، ص١٩٠ .